كلمة العدد :

بقلم : خليفة الخياري

أيّ حوار ثقافي نريد ؟

إن انتخاب بلادنا لتكون عاصمة ثقافية ابتداءً من الشهر المقبل ، يفترض أن نكون قد طرحنا على أنفسنا الأسئلة التي يقتضيها هذا الاختيار ، ما دام يؤدّي بطبيعته إلى الانفتاح على الثقافات المتوسّطية الأخرى . وما دمنا بصدد التجهز لموسم استثنائي يتطلّب مخطّطا بحجم التّتويج الذي أصابته الثقافة التونسية استحقاقا . فبأيّ عتاد سنتعاطى ثقافة الآخر ؟ وعلى أيّ صورة سنوصل ثقافتنا إليه ؟ وإلى أيّ مرجعيّة سنستند في إدارة هذا الحوار الحضاري الرّفيع ؟

* * *

وقبل ذلك ، أليس أحرى بنا أن نستفهم حول ما انضاف إلى ثقافتنا فبُرّزتْ . وما امتازت به فأُفْرِدَتْ وأُوثِرَتْ ؟ أَوَ لَيْسَ هَذَا التّتويج عائدا من عَوَائد التقويم والاصلاح الذي خرج بهذا النشاط الإنساني من مفهومه القديم الذي يحصره في دوائر النُّخَب ويلحقه بكماليات الحياة وترف الموسرين ! إلى مفهوم حديث يرتقي به مُرْتَقَى الضّرورة والحتمية المجتمعيّة ، في موازاة مستوى الرّقيّ التنموي للشعب ؟ وهل هذا المفهوم المُستَجَدّ سوى تصوّر موضوعيّ مرن كان مطلبه الجوهري إيضاح خاصّيات هذه الثقافة في معناها الشامل لمختلف الخاصيات الفرعية التي تمثل ألوانا متمايزة لامتداد ثقافيّ جهويّ متنوّع ؟ ألم نكن إلى وقت قريب عيالا على العاصمة ، لا نتوسّم الاستمرار والنجاح لمشروع ثقافي إلا إذا تأسّس داخلها ؟ !



* * *

إذا كان ذلك كذلك ، فليس أمامنا سوى الامعان في التعريف بخاصيتنا الثقافية الجامعة . والتعمّق في استجلاء أوجه الخصوبة والثراء فيها . فهي مقياس تأهلنا لنكون الطّرف المفرد بامتياز لادارة الحوار الثقافي المتوسّطي . وهي مستندنا الأكثر ثباتا إذا ما نشدنا الانسلال إلى وجدان الأطراف المقابلة . وهي مرجعيتنا التي نعتدّ بها لنتّزن . فلماذا نحدّد المقياس ؟ ولماذا نبيّن المستند ؟ ولماذا نستحضر المرجعيّة ؟

* * *

إنّ شَعْبًا لا يعي خصوصية ثقافته يظلّ هدفا متيسّرا لكلّ رام .

يعيش حالة انبهار مزمنة تستفرغه من مقوّمات ذاته ، فيظلّ بمثابة الوعاء الجاهز لاستيعاب الأنساق الثقافية والمعرفية الوافدة عليه دونما تذوّق أو تخيّر ! لذلك نؤكّد أهميّة الوعي بالخاصيّة الثقافية ، ليستطيع الانسان ـ وهو عرضة للغزو الثقافي لزوما ـ أن يستخدم وعيه في استصفاء ما ينسجم مع خصائص بيئته وعصره ، أو بالأحرى ما يتوافق مع حضارته . فهي « خاصية ـ مقياس » إذا غابت استحال الانفتاح على ثقافة الغير انسدادا في ذهن المتقبّل . وشتّان بين التّثاقف المخصب والتّثاقف المجدب !

وإنّ شعبا يكتفي من حوار الثقافات بالتقبّل الفطري ، لا يكون أهلا لإدارة مـــثل هذا الحـــوار ، ولا يرتوي أبدا من هذا المورد الخارجي مهما كان دفّاقا ... فقط لاغفاله مصدر الضمأ ، وهو جهله بعيون ثقافته المغمورة وروافدها المطمورة . لذلك نؤثر الخاصيّة الثقافية مستندا عتيدا لا لنيل الكفاية الذاتية ، وإنّما لتحقيق التّوازن بين الإضافة « من » ثقافة الغير والإضافة « إليها » . فالحوار الذي نتطلّع إليه حوار أخذ وعطاء . و يهمّنا العطاء أكثر لسببين : أوّلا لأنّ ثقافات الغير لها من قنوات الايصال ما لا يحصى ... وثانيا لأن إيصال صورة واضحة عن ثقافتنا للغير يتطلب منا ما يعادل ما لديه من وسائل . وذلك ما نستعيض عنه بالوعي الذاتي بخاصية ثقافتنا الوطنية . وإنّ ذلك الوعي لهو المفتاح الأساسي ، فإذا عدمناه « ففاقد الشيء لا يعطيه . » !

ثمّ إنّ شعبا يغفل التمسّك بخاصيّته الثقافية أثناء تعامله مع ثقافات الشعوب الأخرى في عصرنا ، لا يمكن لصورته أن تُرَى تحت شمس الحضارة العالمية غير « ظلّ لعود معوجّ » . فمن طبع الانسان أن يستأنس بما يعلم ويعادي ما يجعل . فإذا جهل الغير خاصيّة ثقافتنا عاداها وشوّه صورتها ونبذها من وجدانه وأعدم في ذاته الميل إلى استيعاب أنساقها ... أمّا وغرضنا إعطاء صورة مشرقة مستنيرة عن ثقافة التونسي ، فلا مناص لنا من مزيد البحث فيما يجعل ثقافته أكثر اتّزانا ، وفي خوافيها التي شدّت الأنظار واستقطبت الاهتمام ... حتى لا نظهر للغير بخلاف ما رغّبه فينا ، وننتظر منه ما كان به ضنينا .

* * *

كذلك نريد للثقافة التونسية في موسم إشعاعها أن تكون وتلك مطالبنا من الحوار الثقافي وإنّا على ذلك لعازمون ٪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التـــاريـخ ، القانـون والحـداثـة

(4)

الشيـخ محمـد السنوسي أوّل مـــن سعـى إلـــى الحداثـــة القانونـيـة سعـيا

بقلم : محمد بن الأصفر المحامي

إذا كان الشيخ محمد بيرم الخامس قد التقى بالحداثة القانونية وهو بصدد انجاز الرحلات المتتالية الى ديار أروبا فاستوعبها ووصفها آخذا بذلك موقف التحبيذ لأنه قد كان له استعداد لذلك (1) ، وإذا كان الجنرال حسين قد ألقت به ظروفه ومسؤولياته كوزير وكمسؤول سياسي في دولة الباي ليتعامل مع الحداثة القانونية (2) ، فإنّه ثمّة شخصيات قد اندفعت وسعت الى القانون الوضعي ، نجد في طليعتها الشيخ محمد بن عثمان السنوسي وذلك بالمعنى التاريخي الزمني (الكرونولوجي) والشيخ محمد الفاضل بن عاشور (3) وذلك بعد عقود من الزمان وبمنهجية أكثر وضوحا

أوّلا : من هـو الشيـخ محمـد بـن عثمـان الـسنوسـي

ليس هناك كاتب قد حظي بالتعريف من قبل الباحثين أكثر من محمد بن عثمان السنوسي ، فلقد عرّف به كل من الأساتذة : الشاذلي بويحي (4) وأحمد عبد السلام (5) وعلي الشنوفي (6) والصادق بسّيس (7) وهم مدرسون بكلية الآداب والعلوم الانسانية وآخرهم (في الترتيب) مدرس بكلية الشريعة وأصول الدين (8)

وقد امتاز الأستاذان ، الدكتور أحمد عبد السلام والشيخ الصادق بسّيس بوضع تأليفين خاصين بمحمّد السنوسي « حياته ، وآثاره » .

على أنّنا نكتفي بتعريف الشيخ محمد السنوسي كمـــا يلـــي وانطلاقا مـــن كتاب الأب جـــان فونتان (9) :

لقد امتدت حياة محمد السنوسي القصيرة طيلة النصف الثانـي مـن القـــرن التـــاسع عشر (1851 ـ 1900) ، وهو زيتوني أمّا وظائفه فهي موظف بجمعية الأوقاف وكاتب وصحفي بالرائد وبجريدة الحاضرة وشاعر ... (9)

وأمّا علاقته بالقانون والقضاء فالأفضل أن نحدّث عنها على حدة ، لاختلاف المؤرخين والكتّاب حولها وهي ذات أهمية قصوى بالنسبة لبحثنا هذا .

ومواصلة للتعريف به من خلال الأب فونتان نضيف ان مؤلفات السنوسي تضاهي 23 عنوانا ، (9) . وقد وضع الدكتور علي الشنوفي جدولا لحياة السنوسي منذ بدايتها سنة 1851 ، الى صدور آخر مقال في تأبينه بجريدة الحاضرة يوم 22 نوفمبر 1900 (10) اتضح منه أن

شهادته العملية كانت التطويع وقد نالها سنة 1870 .

أوّلا : 1) وظائفه القانونية

هذا الموضوع موطن خلاف بين المؤلفين والمؤرخين الباحثين ، فهناك من اعتبره منتسبا لاطار كتبة المحاكم (Greffe) وهناك من نسبه لاطار القضاة Judicature وهذا صحيح لكن الخلاف حول المؤسسات القضائية التي عمل بها سواء ككاتب أو كحاكم .

أوّلا : 1) أ- كاتب محكمة

لقد مرّ السنوسي بخطة كاتب محكمة وهي على الأرجح بالمجلس العقاري المختلط (Tribunal Mixte) وذلك حسب الدكتور علي الشنوفي 11 و11 مكرر وحسب الدكتور أحمد عبد السلام (12)

وهناك من يجعل منه كاتبا بمحكمة الوزارة (13) ومنهم خاصة الشيخ الصادق بسيس (14)

أمّا الدكتور علي الشنوفي فهو قد صنّفه كاتبا بالمحكمتين معا أي بالمحكمة العقارية (المجلس المختلط) وبمحكمة الوزارة (15) فلقد اضطلع بالمهمة الأولى بداية من 16 جوان 1886 فيما تعاطى الثانية سنة 1887 .

رهنا نتساءل لماذا تناقضت المعلومات في كتابي « الرحلة الحجازية » و « عالم تونسي في القرن 19 محمد السنوسي » بينما تصدر نفس هذه المعلومات عن نفس المؤلف وهو الدكتور علي الشنوفي ، ففي الأول بوصفه محققا وفي الثاني بوصفه مؤلفا ! ؟ ! ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوّلا : 2) ب- حاكم عدلي

كانت المرحلة الثانية من الحياة الوظيفية الحقوقية لمحمد السنوسي هي تعاطيه للقضاء وهي بدورها ذات مرحلتين مرحلة قاض نائب (Juge Suppleant) ، وقاض (بحصر المعنى / a pait en tiere)

وبقطع النّظر عن الجزئية السابقة فان انتماء السنوسي للقضاء كان مثل انتمائه لكتابة المحكمة متراوحا بين القضاء بالمجلس العقاري المختلط من جهة وبمحكمة الوزارة من جهة ثانية .

فهو من قضاة المجلس العقاري المختلط حسب الأب جان فونتان (16) وحسب الشيخ الصادق بسيس (17) وحسب الدكتور علي الشنوفي (18) و 18 مكرّر .

وهو من قضاة محكمة الوزارة حسب الدكتور أحمد عبد السلام الذي حقق أن السنوسي بعد خطة كتابة المحاكم قد أصبح قاضيا (مستشارا) بمحكمة الوزارة في الدائرة المدنية أوّلا ثم في الدائرة الجنائية . (19) الى أن مات على الخطة الأخيرة .

وهذا الأمر قد أثبته على وجه التحقيق الشيخ الشاذلي النيفر حيث أورد انتساب محمد السنوسي للقسمين المدني والجنائي بمحكمة الوزارة حين ذكر مرجعا قانونيا مهما وهو أنّ السنوسي قد تولّى هذه الخطة بمقتضى قرار الكاتب العام المؤرخ في 10 فيراير (أي فيفري) 1889 . (20) وكان السنوسي قد عمل بهذه الصفة برئاسة الشيخ يوسف جعيط وبعضوية

الحاكم الشاذلي الكبادي (21) وهذه الدقة التي توخاها الشيخ الشاذلي النيفر تجعلنا نأخذ بمعلوماته أكثر من غيره ، وهذا ما يجعلنا نسلّم بأنّ الشيخ السنوسي انتسب الى :

* المحكمة العقارية (المجلس المختلط) بصفة كاتب معاون ولم يعمل بالمحكمة المذكورة بصفة قاض وقد تحرّى الشيخ النيفر اعتمادا على التقويم المعروف بالنزهة الخيرية لسنة 1304 هـ / الصفحة 81 وهي من وضع الشيخ حسن لازغلي أو (لاظ ـ أوغلو) كما يضبط ذلك الشيخ الصادق بسيس .

** مجلس الوزارة بصفة كاتب (أو حافظ مكاتيب) (22) رسم بصفة عضو أي حاكم بالدائرتين المدنية والجنائية . والخلاصة أنّ الشيخ محمد السنوسي قد انتسب للعائلة القضائية في رافدها غير الديني ، وهذا ما سنعود اليه في الإبّان .

أوّلا : 2) تآليفه في القانون الوضعي

رأينا الأب جان فونتان يقول أنّ السنوسي قد وضع 23 عنوانا أو تأليفا بين كتاب ورسالة إلخ فما نصيب الفكر التشريعي من هذه المؤلفات ؟

وقد قلنا الفكر التشريعي لا الفقه (الديني) ، ولا القانون (الوضعي) ، متعمدين ،إذ بفضل المنهج المقارن يمكن لنا الوقوف على مدى اهتمام هذا المثقف التقليدي والزيتوني والقانون الوضعي .

أوّلا : 2 ـ أ) الفكر التشريعي في المكتبة السنوسية

تنقسم المؤلفات التشريعية للشيخ السنوسي إلى أغراض مختلفة فهي :

* فقهية دينية بحتة :

ـ الروض الزاهر في اسناد الحبس للإسلام الباهر (23) : وهي رسالة في الحبس حسب الشيخ الشاذلي النيفر (24)

** قانون مقارن : إسلامي / وضعي

ـ مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري (25)

ـ نشر البساط في نازلة الفسفاط . (26)

ـ رسالة في المجبى (27)

*** القانون الوضعي :

ـ نظام المدينة المفيد (28) الذي ذكره كل دارسي السنوسي ولم يشر الى حالته كمخطوط إلاّ الشيخ الصادق بسّيس

ـ فقه القوانين التونسية وهذا التأليف موعود به من طرف السنوسي ولم يذكره الاّ الشيخ بسّيس (29)

ـ غرر الفوائد بمحاسن الرائد (30)

ـ التعريف بالعدول التونسيين ، وهذا أيضا موعود به (31)

فالفكر التشريعي للسنوسي لا يدل بسهولة على أنّ صاحبه مثقف تقليدي ومن خريجي جامع

الزيتونة .فكيف نفسّر هذا المنزع الى القانون الوضعي والتأليف لديه فيه ؟

هل يكفي أن يكون السّنوسي قد عمل ككاتب تم كحاكم بالمحاكم غير الدينية (المجلس المختلط العقاري والمحاكم العدلية التونسية) ليعتني كل هذا الاعتناء بالقانون الوضعي وهذا اعتناق قد امتاز به الشيخ بيرم الخامس الذي اكتفى بالإستيعاب والوصف وعلى الجنرال حسين الذي كتب بقدر ضرورة القضايا (النوازل) التي باشرها في حق الدولة التونسية ؟

ثانيا : من ثقافة عهد الأمان إلى ثقافة الرائد التونسي

لئن تلقى الشيخ السنوسي تعليما زيتونيا قحا ، فانه قد عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي الذي عرف منعرجين ثقافيين كبيرين في تونس وهما دستور عهد الأمان أوّلا والرائد التونسي ثانيا .

ثانيا : 1 : ثقافة دستور عهد الأمان

من قول الدكتور المنجي صميدة إنّ اهتمامات محمد (بالفتح) باي كانت متجهة للمسائل اللمالية بما لم يجعل أحدا ينتظر أن تصدر عنه يوم 10 سبتمبر 1857 وثيقة دستور عهد الأمان (32)

وأمّا المبادئ التي بشّر بها دستور عهد الأمان فهي مخالفة لمضمون التشريع الاسلامي ومنها ما يلي :

ثانيا : 1 ـ أ ـ حقّ الملكية

إنّ الملكية العقارية في ديار الاسلام حكر على المسلمين ، وقد جاء دستور عهد الأمان ممكّنا غير المسلمين منها ، فمن المعلوم أنّ النّصارى واليهود كان لهم نظام عقاري يقوم على التضييق الشديد بالنسبة للملكية :

* اليهود ونظام الخزاقة

إنّ اليهود كانوا في تونس يعيشون تحت نظام الحزقة ويتطقها اليهود (خراقة) وهو نظام يمكن اليهودي من حق البقاء في العقار المكري ـ وجوبا ـ لأنه ليس لهم حق الملكية وذلك مع المحافظة على معين كراء لا يقبل الزيادة ... الخ (33) وان دستور عهد الأمان من شأنه أن يرفع هذا التضييق في حق الملكية على يهود تونس شأنهم شأن المسيحيين في ذلك .

** المسيحيون وسكنى الفنادق

إن نفس الأسباب جعلت المسيحيين يسكنون في الفنادق (المفرد : فندق) ، وهي محلاّت لسكنى الأشخاص ولحفظ البضائع (34) ...

وإنّ هذا التضييق قد يزول بمفعول دستور عهد الأمان الذي أعطى النصارى حق الملكية العقاري في البلاد التونسية

ثانيا : أ ، ب) الأمان لكلّ السكّان

هذا المبدأ الذي لا يفرّق بين المسلم وغير المسلم في الحق في الأمان تقدمي ومن شأنه أن يسدّ الطريق أمام إباحة محرمات الكاعز (صيانة نفسه وماله وعرضه) تماما مثل المسلم

ثانيا : 1 ـ ج) المساواة الجبائية

وهذا يعني منع الجزية الواجبة على المشامن أي على غير المسلم يهوديا كان أو مسيحيا . وهو أمر مخالف للأدبيات الدينية

ثانيا : 1 ـ د) حرية العبادات والشعائر

أن يصدر هذا المبدأ سنة 1857 في تونس فهو أمر تقدّمي ، خاصة إذا علمنا أنه لم يصدر في فرنسا في شكل نص رسمي (الفصل 10 من تصريح حقوق الإنسان والمواطن) إلا في 26 أوت 1789 لتعاد صياغته في الدستور الفرنسي لسنة 1791 ... ... (35)

إنّ مجموع هذه المبادئ التي جاء بها دستور عهد الأمان والتي لم تكن معروفة في أدبيات التشريع الإسلامي من شأنها أن تعدّ الواعي بها للإقبال على القانون الوضعي ولعلّ ذلك كان قدر الشيخ محمد السنوسي ...

ثانيا : 2 : ثقافة الرائد التونسي

في قراءة ذكية يرصد لنا الأستاذ حفناوي عما يرية مساهمة الصحافة في تحديد الثقافة في تونس خلال القرن التاسع عشر .ولقد أفرد الرائد التونسي بأكثر من خمسين صفحة (36)

ومن الطبيعي أن الوظيفة الأساسية للرائد التونسي قانونية وخاصة القانون الوضعي فهو الذي ينشر : البلاغات والقوانين الصادرة عن الحكومة التونسية (37) والمعلوم أم عمل الحكومة يصطلح عليه بـ « الطريقة السياسية » (38) للدلالة على طابعها المخالف للـ « الطريقة الشرعية » (39) ... وهو ما يعني في النهاية القانون الوضعي في فهمنا ... باعتبار تلك العلاقة الوظيفية الكائنة بين القانون والقضاء ... ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثمّ إنّ الرائد التونسي قد نشر بواسطة مطبعته أهم أجزاء المتن القانوني الوضعي التونسي وهي :

أ ـ قانون الجنايات والأحكام العرفية

ب ـ قانون الدولة

ج ـ قانون العمال

ث ـ قانون ضبطة تونس (أي العاصمة)

ج ـ قانون ضبطة البلدان (أي داخل البلاد)

ح ـ قانون ضبطة جناه البلدان (أي داخل البلاد)

خ ـ ترتيب الخدمة الداخلية بالمجلس الأكبر وبمجلس التحقيق (40)

وكنا قد شرحنا هذه المفردات القانونية باقتضاب في الحلقة الأولى من سلسلة بحوثنا الموسومة (التاريخ ، القانون والحداثة) (41)

وإن نشر هذا المتن القانوني الوضعي كان « أهم أثر فكري يعكس محاولة تجديد الحياة السياسية ونقد الإيديولوجيا التحديثية في تنظيم العلاقات بين السلط وبين الحاكم والناس » كما يقول الأستاذ عمايرية (42)

فطبيعي أن يتأثر الشيخ محمد السّنوسي بهذه الثقافة التحديثية والمتصلة بالقانون الوضعي وذلك باعتباره من أبناء الرائد التونسي حيث عمل كمحرر بجريدة الرائد التونسي بداية من 26 أوت 1876 الى 3 جوان 1881 (43) أي لمدة خمس سنوات .

وهكذا فإن المسيرة الإدارية للشيخ محمد السنوسي الذي عمل بالقضاء العلماني ككاتب بالمجلس العقاري المختلط وكحاكم بالدائرتين المدنية والجنائية بمحكمة الوزارة ... ثمّ إنّ عمله بالرائد التونسي من سنة 1876 الى سنة 1881 قد جعله يطلع على المتن القانوني الوضعي التونسي اطلاعا متسعا ان لم يكن عميقا ... واننا نرى أنه بقطع النظر عن مبالغات محمد القروي والصادق بسّيس وإن كانت كل مبالغة في اتّجاه مخالف للآخر في تقويم ثقافة محمد السنوسي (44) فإنّه ليس من الغريب عليه أن يدلي بدلوه في ميدان التأليف في القانون الوضعي وقد أتيحت له كل الأسباب الموضوعية فماهي مساهماته في هذا المضمار ؟

ثالثا : محمد السنوسي راند التأليف في القانون الوضعي

أن تكون للجنرال حسين كتابات باللغتين العربية والفرنسية في ميدان القانون الوضعي (45) فإن ذلك يتنافى مع الاقرار بالزيادة للسبق لهذا السوسي في هذا الميدان . ذلك لاختلاف المقاصد والأسباب والدواعي عند كل منهما. فماهي المضامين المتصلة بالقانون الوضعي التي عالجها الشيخ محمد السنوسي ؟ من المعلوم أن الشيخ السنوسي قد خص كل غرض قانوني وضعي بتأليف خاص به .

ثالثا : نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد

لقد وضع السنوسي هذا التأليف (نظام المدينة المفيد لكتاب العصر المفيد) يقصد إشاعته في أوساط الكتاب من الموظفين وقد وضعه عندما عين كاتبا بالقسم المدني بالوزارة (46) وهو في شكل مخطوط .

وفي التأليف يبين السنوسي الفرق بين القانون العام من جهة والقانون المدني (أو الخاص) من جهة ثانية ويصنف كلام القانون الدستوري والقانون الاداري والقانون الجنائي (47) كما يضع الحدود بين إختصاصات كل من الوزارة والمحاكم الشرعية والمجلس البلدي (48) وإنه بالرغم من الخلفية الإسلامية حيث أن التأليف ينتهي بتضمين رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري (49) فإن مضمونه في التراتيب وفي القوانين الوضعية اللائكية ... كما أن الهدف من التأليف هو إشاعة هذه العلوم بين الموظفين كما سبقت الإشارة إليه أي أنها مجهود يرمي لنشر ثقافة القانو ن الوضعي .

وقد بين لنا الشيخ الصادق بسيس أن السنوسي قد كان ملما بالقانون الوضعي وخاصة فيما يعرف قديما بأصول المرافعات وحديثا بالا جراءات إذ أنه قد وضح في هذا التاليف « صلاحيات قسم الأمور المدنية » أي مانعبر عنه اليوم بمرجع النظر الحكمي للدائرة بالمحكمة .. كما أنه قد وضح « أصول المرافعة » أي إجراءات رفع القضايا .

ثالثا : 2 ـ فقه القوانين التونسية

لم يضع السنوسي هذا التأليف إذ لا يوجد كتاب ولا مخطوط بهذا العنوان وإنما قد ذكر في

الصفحة 152 من « مطلع الدراري » (40) انه يأمل في استكمال تأليف فقه القوانين التونسية الشاملة للقوانين السياسية والقوانين الادارية ... وفي كنف ذلك حصل الإحاطة بأحكام ادارة الأشغال العامّة وما في ضمنها من الغابات (40) (كذا)

فالرّجل إذن مندفع تمام الإندفاع في التعريف بالقانون الوضعي وفي نشره بين الموظفين والناس عموما ...

رابعا : محاولة التوفيق بين التشريع الاسلامي والقانون الوضعي أم محاولة تقريب القانون الوضعي ؟

إنّ اندفاع الشيخ السّنوسي وراء التأليف في القانون الوضعي لم يكن بدون خلفية سلفية بل وحتّى أصولية (نسبة إلى علم الأصول حسب المفهوم التومرتي) بالنسبة للأستاذ أحمد خالد (51) وأعتقد في ذلك أنّنا سنجده يحاول التوفيق بين الشرع الاسلامي والقانون الوضعي لكننا لا نوافق الأستاذ أحمد خالد فيما ذهب تايه لأنّ المنهج المقارن بين الشرع والقانون الوضعي عند السنوسي لم يكن انتصارا للتشريع الاسلامي وانما تحبيبا للناس في القانون الوضعي وتقريبه منهم في محاولة لتأصيل كيانه .

ومن المفيد الإشارة الى أنّ الأوساط القانونية والقضائية العليا كانت تعلم تبرز السنوسي في القانون المقارن (اسلامي / وضعي) من ذلك أنّ أوّل رئيس للتريبونال (أو المحكمة الفرنسية) وهو الحاكم فابري / President Fabry (52) قد استفاه حول الطبيعة القانونية للفسفاط إذا ما كان عقارا أو منقولا فأجابه اجابة علق عليها الدكتور علي الشنوفي قائلا « ان اختصاص السنوسي في مادة القانون العقاري كان بالقدر الذي جعل رده رشيقا وهي حجة تاريخية تدل على كفاءته ، فالحقوقيون الفرنسيون المبرّزون يطلبون رأيه » (53) وواضح أنّ الدكتور الشنوفي يقصد التأليف الذي عنوانه « نشر البساط في نازلة الفسفاط » (54) فكيف قارب السنوسي القانون المقارن (اسلامي / وضعي) ؟

رابعا : 1 ـ مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري

كأنّنا بالسنوسي يقوم بعملية وزن للقانون الوضعي بميزان القانون الإسلامي ، فهي عملية عكس تلك التي يقوم بها نقاد الأدب اليوم حين يقاربون الأدب العربي الجاهلي بواسطة الألسنية التشومسكية (نسبة إلى تشومسكي) أو تلك التي يقوم بها المؤرخون حين يطبّقون المنهج الماركسي على هجرة الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وغزواته ليصلوا إلى نتائج موافقة للمادية التاريخية .

فالسنوسي يقرر أنّ « الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي هما مصدر القانون العقاري » (55) وذلك بالرغم من أن اللجنة التي صاغت هذا القانون العقاري لم تكن تضمّ علماء الشرع فحسب ، بل انها كانت تلمّ العارفين بقوانين الدولة » والدولة فرنسية آنذاك لأنّ القانون العقاري قد صدر بتاريخ 31 جويلية 1884 (56) .

وإنّ محاولة السنوسي هذه ، الرّامية الى تقريب القانون العقاري كقانون وصفي الى النفوس

قد كانت محل انتقاد حيث اعتبر الشيخ النيفران ما صدر عن السنوسي من مواقف حول القانون العقاري هو انحراف (57) .

وان ممثلي الشرع الذين انضموا الى تحرير القانون العقاري ظلو محتزين الى آخر لحظة ولم يصدر منهم إجماع حول هذا القانون (58) خلافا للموقف الذي من المفروض أن يكون قد اتخذه السنوسي ... وهو التحبيذ والتبني .

ومن المفارقات أنّ هؤلاء المشائخ الذين عارضوا القانون العقاري فيهم تقدميون كانوا ساندوا اصلاحات الوزير خير الدين رغم عدم مطابقتها للشرع تمام المطابقة وهم : الشيخ أحمد بن الخوجة شيخ الإسلام الحنفي والشيخ الشاذلي بن صالح باش مفتي المالكية والشيخ الطاهر النيفر القاضي المالكي (59) و 59 مكرر .

فإذا احترز علماء تقدميون حول نص قانوني (القانون العقاري) وتحمس له محمد السنوسي معتبرا أنه مستمد من الشرع الإسلامي فهذا يعني أن النص حداثي وأقرب إلى فضاء القانون الوضعي منه إلى فضاء التشريع الاسلامي ... ... وإنّ حقيقة السنوسي انه كان يريد الانتصار للقانون الوضعي وان التلميح بأنه نص له مرجعيته دينية هي مسألة « بيداغوجية » ترمي إلى « تطبيع » النص الوضعي وقد خلع الشيخان العربي المازوني ومصطفى رضوان صفة الجاهلي على محمد السنوسي حين علّقا على كتابه « مطلع الدراري » بأنّه « كثير الأخطاء الفقهيــة » (60) ، أمّا الشيخ البشير النيفر فإنه رأى في ذلك تملّقا من السنوسي للحكومة الفرنسية التي كانت نفته بقابس عساها تخفف عليه من الضغوط (61) ....

وقد يكون موقف المشائخ ايديولوجيا ، أي انه موقف من القانون الوضعي ، وليس من مستوى أداء الشيخ السنوسي في الميدان الفقهي ، والدليل أنهم لم يعلّقوا على مستوى أدائه حــين حرّر « الروض الزاهر في اسناد الحبس للإسلام الباهر » حيث بحث كلّ ما يتصل بالأوقاف في بابين اثنين (62) ولم يعارضه تعقيب في ذلك فلو كان جاهلا في ميدان الفقه لامتدّ جهله لتألفين ولو كان عان عارفا به لانعكس ذلك على الكتابيين

خامسا : متفرّقات

هناك مواضيع قانونية مختلفة تحدث فيها الشيخ محمد السنوسي تتصل بقانون الشركات والبنوك وبالاجهاض .

خامسا : 1ـ الشركات والفائض

عند تعرضنا للشيخ محمد بيرم الخامس قلنا أنه ليس من الغريب أن يتحدث عن الشركات باعتبار تعرض التشريع الاسلامي لذلك (63) ... وإنّما الطّريف أن يتطرّق الى مسألة الإفلاس (64) ....

أمّا السنوسي فعلاوة على كونه قد أثرى لغة القانون التجاري فــي النشــر التونســي بلفظي « شركة العنان » و « شركة المفاوضة » (65) .. فإنه قد أصدع برأي جريء جداً في باب تحريم الفائض من عدمه ، حيث يقول : « إنّ القول بأن فائدة الودائع من حيث الحصول عليها

هي ربـا ممنوع تشرعا فهـو هذيـان الجاهلـين وحماقة البطالين وفلسفة الفقراء المفسدين » . (64)

فمن الغريب أن يكون موقف شيخ زيتوني من الربا على هذا النحو ، تزول الغرابة حين نتأكد أنّ السنوسي قد أخذ بالقانون الوضعي وبكل ما اتصل به من الآليات ولو كان الربا أي الفائض وجعل منه احدى قضايا عمره القصير .

خامسا : 2ـ البنوك

يسمي الشيخ السنوسي المصارف « بنوك الاقتصاد » (64) فنسجل له هذا الجانب الانمائي اللغوي فقط ، اذ يبدو من انتقاد محمد القروي أنّ السنوسي لم يكتب ما يدل على المامه بآليات عمل البنوك ...

خامسا : 3ـ الاجهاض

يذكر السنوسي أن كل بلدان أروبا تمنـع الاجهاض بداية من يوم يصبح فيه الحنين يتحرك . (65)

وهذا صحيح لأنّ القانون يضع أجلا (3 أشهر مثلا) لترتيب العقاب في صورة الإجهاض والمقصود بالأجل المذكور هو أنّ المحمي هي النفس البشرية التي تتكوّن في تلك الفترة وليس قبلها .

كما أفادنا بمعلومة صحيحة وهي أنّ القانون الأنجليزي القديم كان يعاقب المجهض ليس على أسـاس أنـها مجرّد جريمـة ، إجهاض ، وإنّما باعتبارها جريمـة قتـل كـاملـة (65) (Avoptement et Homicide) والفرق بين الحقو بتين كبيرا .

وهكذا.فإنه لا جدال في أنّ أهمّ شخصية تونسية عاشت في القرن التاسع عشر ميلادي قد عانقت الحداثة هي بدون منازع محمد بن عثمان السنوسي .

الإحالات :

1 ـ محمد بن الأصفر ـ التاريخ ، القانون والحداثة ـ (2) ـ الشيخ محمد بيرم الخامس والقانون الوضعي (الخاص) مجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة عدد 72 ـ أكتوبر 1996

2 ـ محمد بن الأصفر ـ التاريخ ، القانون والحداثة (3) حسين (الجنرال) : أوّل محامي تونسي ؟ ـ مجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة ـ عدد 73 ـ نوفمبر 1996

3 ـ سنتحدث عن علاقة الشيخ الفاضل بن عاشور بالقانون الوضعي في إحدى الحلقـات القادمـة مـن سلسلة (التاريخ ، القانون والحداثة ، إن شاء الله)

4 ـ محمد القروي وحادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية ـ تحقيق الشاذلي بويحي ، الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس ـ 1984 ..... وسنصطلح عليه بعبارة « الاستطلاعات الباريسية »

5 ـ Ahmed Abdessalem : les historiens tunisiens des 17 éme ; 18 éme et 19 éme siécle ; publications de l'université de tunis ; faculté des lettres et sciences humaines : 4 éme serie - Histoire volume 11 - 1973

ويصطلح عليه بعبارة « المؤرخون التونسيون »

6_ Ali Chennoufi - un savant tunisien du 19 éme siécle - Md Hammad AS - Sa-nusi - sa vie et son oeuvre - publications de l'université de tunis - faculté des lettres et sciences humaines 4 éme serie Histoire volume - 19 -- 1977 ,

ويصطلح عليه بعبارة « علي الشنوفي »

7 ـ الشيخ محمد الصادق بسيّس ـ محمد بن عثمان السنوسي ـ حياته وآثاره ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس (د ت) ويصطلح عليه بعبارة « الشيخ بسيّس »

8 ـ لم يكن التعليم العالي في تلك الحقبة قد تهيكل في شكل جامعات مثل « جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية » و « جامعة الزيتونة »

9_ Jean fontaine : histoire de la letterature tunisienne par les textes - Tome 2 - du 13 eme siecle à l'independance edition SAHAR Tunis 1994 pp 108 - 111

ويصطلح عليه بعبارة « الآب فونتان »

10 ـ علي الشنوفي ، م س - صص 19 - 22 .

11 ـ ع - الشنوفي ، م س - ص 21

11 مكرر . الرحلة الحجازية - تحقيق علي الشنوفي الشركة التونسية للتوزيع - تونس - 1976 - ص 11

12 ـ المؤرخون التونسيون - م س ـ ص 414

13 ـ محكمة الوزارة : انظر ـ محمد بن الأصغر ، التاريخ ، القانون والحداثة 17) ـ القانون الرضعي في دولة اسلامية ـ مثال : تونس مجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية بسليانة ـ عدد 71 ـ سبتمبر 1996 ـ ص 11 .

14 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص 15 .

15 ـ محمد السنوسي ـ الرحلة الحجازية م س ص 11

16 ـ الآب فونتان ـ م س ـ ص 108 .

17 ـ الشيخ بسيس م س ص 16

18 ـ محمد السنوسي ـ الرحلة الحجازية ـ م س ـ ص 12

18 مكرر ـ علي الشنوفي ـ م س ـ ص 21 .

19 ـ المؤرخون التونسيون ـ م س ـ ص 414

20 ـ محمد السنوسي مسامرات الظريف بحسن التعريف ـ تحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ـ عميد الكلية الزيتونية ـ دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ـ تونس ـ 1983 ـ ص 38 .

21 ـ محمد السنوسي : مسامرات الظريف ـ م س ـ ص 39

22 ـ محمد السنوسي ـ مسامرات الظريف ـ م س ـ ص 36

23 ـ الشيخ بسيس ـ م س ـ ص 168

24 ـ محمد السنوسي ـ مسامرات الظريف ـ م س ـ ص 65

25 ـ محمود شمام : خلاصة تاريخ القضاء بتونس ـ مطبعة الوفاء ـ تونس ـ 1992 ـ ص 98 .

26 ـ الشيخ بسيس ـ م س ـ ص 173 .

27 ـ الشيخ بسيس ـ م س ـ ص 171

28 ـ الشيخ بسيس ـ م س ـ ص 181 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

29 ـ الشيخ بسيس ـ م س ـ ص 196

30 ـ الشيخ بسيس ـ م س ـ ص 159

31 ـ الشيخ بسيس : م س ـ 196

32 ـ MONGI SMIDA : La tunisie Husseinite du 19 éme siécle in : histoire de la tunisie (ouvrage collectif par E -guellour A MASMOUDI et M : SMIDA) S.T.D Tunis 1983 p 330 - 331

33 ـ محمود شمام : خلاصة تاريخ القضاء بتونس م س ص 107 .

34 ـ ABDEL JELIL KAROUI : la tunisie et son image dans la letterature française du 19 éme siécle et de la 1ére moitie du siecle (180 - 1945) STD Tunis 1975 p 13

35 ـ MAURICE DUVERGER : Constitutions et dounets politiques P-U-F collection THEMIS Paris 1978 p 10

36 ـ حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة ـ تونس القرن 19 ـ المعهد الوطني للتراث والدار التونسية للنشر 1994 ـ صص 209 ـ 321 .

37 ـ حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة ـ م س ـ ص 233

38 ـ جمال بن طاهر : الفساد وردعه ـ الردع المالي وأشكال المقاومة والصراع بالبلاد التونسية (1705 ـ 1840) جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ـ كلية الآداب ـ منوبة ـ سلسلة التاريخ مجلد 7 ـ منوبة 1995 ـ ص 299 وما بعدها ....

39 ـ جمال بن طاهر : الفساد وردعه ـ م س ـ ص 271 وما بعدها ...

40 ـ حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة ـ م س ـ صص 306 و 307 .

41 ـ محمد بن الأصفر : التاريخ ، القانون والحداثة (1) القانون الوضعي في دولة إسلامية ـ مثال : تونس ـ م س ـ صص 10 و 11 .

42 ـ حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة ـ م س ـ ص 307 .

43 ـ محمد السنوسي : الرحلة الحجازية ـ م س ـ ص 10 .

44 ـ محمد بن الأصفر : التاريخ ، القانون والحداثة (1) ـ م س ص 17 .

45 ـ محمد بن الأصفر : التاريخ القانون والحداثة (3) حسين الجنزال أول « محامي » تونسي ؟ ـ م س ـ صص 10 و 11 .

46 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص 183

47 ـ علي الشنوفي : م س ـ ص 158

48 ـ ع ـ الشنوفي : م س ـ ص 158

49 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص 105

50 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص 196

55 ـ أحمد خالد : أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحدّاد وجيل ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس 1979 ـ ص 10

52 ـ ان النهج الواقع بين قصر العدالة بتونس ومحكمة الاستئناف بتونس والمتعامد مع شارع باب بنات والواقع بينه

البقية ص 33

مدينة دوز : نموذج التداخل بين البداوة والحضارة في الجنوب التونسي

تأليف : د . محمد العزيز نجاحي
تقديم : محمد بالرّاشد

لماذا نقدم هذا الكتاب ؟ ماهي الإضافة التي جاء بها ؟ أين تكمن أهمية هذا المصنف ؟ جملة من الأسئلة تثار بل هي تفرض نفسها إلى درجة أنها تتحوّل إلى حوافز للإطلاع على الكتاب ذاته لا على التقديم . إذ مهما كان تقديم مصنف ما شاملا ومستوفيا لكل جوانب الكتاب إلاّ وظلت جوانب أخرى غامضة لأنّ التقديم وليد قراءة والقراءة اجتهاد ومن « اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد ولم يصب فله أجر واحد » .

في البداية نشير إلى أنّ الكتاب من تأليف باحث جامعي له مؤلفات عدة منها : « البحوث والرسائل الجامعية قواعد ومناهج وتقنيات ، صادر عن دار اسهامات في أدبيات المؤسسة تونس 1988 و « العراق » : « تاريخ وتجربة تصنيع » بالفرنسية قدمت له الدكتورة (عميدة كلية التصرف بصفاقس سابقا) وصدر عن دار سحر للنشر . وهي ذات الدار التي صدر عنها الكتاب موضوع البحث في موفى سنة 1995 .

ويطرح كتاب مدينة دوز مسألة التغير الاجتماعي في الريف التونسي ، بل في الصحراء التونسية وهي مسألة شملت كلّ الأقطار العربية بلا استثناء « وتغير وجه الصحراء تلك التي لم تكن سوى فضاء شاسع تعبره القوافل في خوف وتفقد طريقها أحيانا عبر متاهاته ، وتختاره الرمال والرياح وأنهار السراب مكانا دائما لإقامتها ويتبادل عليه الحراسة قيظ الشمس وبرد الليل » . (1)

فكتاب مدينة دوز نموذج عن الدراسات السوسيولوجية التي اتجهت إلى فضاءات بكر منها فضاء الصحراء التونسية بل إنّ موقع المدينة مجال البحث « يتيح لها الإشراف على أبواب الصحراء الكبرى » (2) . ولعل ذلك الدافع الرئيسي للمؤلف لتنزيل بحثه « في إطار اشكالية كبرى : التغير الحضاري وتنمية المجتمع » (3) .

ولبحث هذه الإشكالية لم يقتصر الباحث على علم الإجتماع لوحده ، بل إستعان « بالعلوم المجاورة كالتاريخ والجغرافيا والانتروبولوجيا » (14) ، فالظاهرة الاجتماعية ظاهرة شمولية ، تتكامل مختلف أبعادها .

المنهج : يندرج هذا البحث في إطار الميكروسوسيولوجيا وبالتحديد : دراسة الحالة ، وقد اعتمد الباحث على مختلف العلوم ولكن التركيز كان على « التباين والتشابه الموجود على سطح الأرض والعلاقات المكانية التي تربط بين ظاهراته الطبيعية والبشرية والتي تضفي على كل منه صفة تميزه عن غيره » (5) . كما وظف المؤلف المقابلة ونجد في الكتاب ذكرا لبعض المقابلات

مثل مقابلة مع محمد العيدي بلفيث بتاريخ 12 مارس 1993 وثانية مع نفس الشخص بتاريخ 18 أكتوبر 1995 بدوز كالأولى ... إلخ .

وقد أحاطنا الدكتور نجاحي علما باستفادته من الأعمال التي أنجزها طلاب معهد التنشيط الثقافي سواء بإشرافه أو بإشراف زملائه الجامعيين وفي اعتقادنا هذا حافز لطلاب العلوم الإنسانية والإجتماعية عامة على الإقبال على البحوث الحقلية والإيمان بجدوى القيام بها .

ولعلّ تعدّد الطرائق في المنهج دليل على ثراء الفضاء مجال الدراسة ورغبة الباحث في سبر أغوار هذا الواقع البكر . ويمكن القول في هذا الإطار أن مصنف مدينة دوز سيكون أثرى لو اعتمد الدكتور نجاحي مقارنة هذا المجتمع الصحراوي بمجتمع صحراوي آخر في قطر عربي كالسعودية مثلا وهو ما نأمل إنجازه من المؤلف في مرحلة تالية خاصة وأنّه قادر على ذلك .

عوامل التحوّل في مجتمع مدينة دوز :

عوامل التحول هي العناصر أو العوامل التي ساهمت في إحداث تحول وتبدل في المجتمع فضاء الدراسة وقوة هذه العوامل هي التي تحدد درجة التحوّل او نسبته . أي هل تحوّل جذري أم تحوّل توازن ؟

يمكن حصر هذه العوامل في الفلاحة (النخيل) وما تقتضيه من إستقرار « مدينة دوز أهلها بدو ورحّل وأصبحوا أصحاب الواحات التي تتطلب إستقراراً لأهميتها . فواحات دوز أكثر من نفزاوة وهي (واحات نفزاوة) تساهم بـ 65 من الإنتاج الوطني من التمور » (6) هذا بالإضافة الى السياحة التي تعد في تونس عامة من عوامل التبدل والتغير « مدينة دوز مدينة صناعية : أي أنها تعيش الحدث الصناعي السياحي ويذهب الكثير ممن قابلناهم أثناء زياراتنا الميدانية إلى عدها عاصمة السياحة الصحراوية » (7) . هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى كالتعليم ، الهجرة ، الوظيف . وفي نظرنا فإنّ خصوصية هذه العوامل هي التي تعطي خصوصية التحوّل فلو نظرنا مثلا في قول عالم الإجتماع المصري سعد الدين إبراهيم « ويشهد الأسلوب البدوي في الحياة الذي قاوم أي تغيير ملحوظ لآلاف السنين تغيرات مهمة في الوقت الحالي ، نتيجة لاستكشاف النفط في أواخر الثلاثينات من القرن الحالي » (8)

إن كان النفط عامل تحوّل في المشرق العربي وفي بعض البلدان المغاربية (ليبيا + الجزائر) فإنه لم يكن كذلك في تونس . بلغة مغايرة الصحراء التونسية ودوز جزء منها ـ لم تعرف تلك الطفرة النفطية ، فالبترول في بعض البلدان العربية أتى « ليفرض هيكلا فوقيا عاتيا عاليا بالغ القوة والثقل » (9) . ضمن هذا السياق يمكننا الحديث عن خصوصية في العوامل بالنسبة إلى البادية التونسية . لكن السؤال الذي نجد أنفسنا مضطرين لاثارته هو ما هي آثار هذه العوامل ؟ أو بالأحرى ما هي نتائجها ؟ وهنا نظرة الأستاذ نجاحي لمظاهر التحوّل .

مظاهر التحول :

إن مظاهر التحول التي أثارها الباحث ، عديدة منها ما يتصل بممارسة الفلاحة وتحديدا غراسة النخيل ، منها أيضا السياحة ولكن مظاهر التحول هذه سيمكننا الوقوف عندها من خلال ظاهرة الثنائية التي صارت تطبع حياة المرازيق (أهالي دوز) من ناحية أولى ومن خلال ظاهرة

ما عبر عند المؤلف " أجراءات حفظ الذات وتنمية المجال " (10)

* ظاهرة الثنائية :

المقصود بظاهرة الثنائية هو تعايش نمطين من الحياة جنبا إلى جنب ، فمن ناحية نجد الفلاحة الموجهة للتصدير ، ومن ناحية ثانية لا زال أهالي نوز يمارسون الرعي التقليدي الذي يعتمد على شساعة المراعي التي تصبح مسارح لقطعان الأغنام والماعز والإبل . بل إن النظرة إلى حيوان الجمل بدورها ذات بعدين أولها اقتصادي حيث أصبح هذا الحيوان « موردا إقتصاديا لتغطية حاجات المنطقة من اللحوم » (11) أما الثاني فقيمي أي رمزي بعد أن تم إستعماله للسباق للحفاظ على النخوة العربية كالفرس » (12)

ظاهرة الثنائية هذه نجدها في وسائط النقل وإذا كان نوز حيوانات الركوب هاما في الاتصال بين المدينة وريفها أثناء رحلة العمل والتسويق اليومي أو الأسبوعي حيث تتوافد عليها جماعات القرويين فإن نوز الشاحنات الخفيفة 4\4 بيجو واسوزو لا يقل أهمية عن الأول بل إنه ما فتئ يتسع على حساب الأول وتظهر هذه الثنائية بوضوح في فصل الصيف باعتبار عودة المهاجرين ومعهم سيارات فاخمة مثل المرسيدس (13) .

وتمتد هذه الظاهرة لتشمل وضع المرأة المثقفة . وتبرز خلال ذلك التمزق بين " الآراء التقليدية منذ القدم حول دونية المرأة عن الرجل والتي تبدو واضحة في العديد من مجالات التحرك الإجتماعي في الإطار الذي يعيش بداخله وبين مفاهيمهن الحديثة عما يجب أن تكون عليه مكانة المرأة وضرورة مساواتها بالرجل (14)

ARCHIVE

* اجراء ات حفظ الذات وتنمية المجال :

« لعل من أهم مميـــزات مظاهـــر إجـــراء ات حفظ الـــذات تنميـــة المجـــال ما يلـــي :

ـ مهرجان نوز الدولي ـ متحف الصحراء ـ الجمعيـــات ـ السياحة » (15)

إن هذه الإجراء ات تسمح بحفظ الذات فهي أسلوب لاحياء الموروث فمن خلال مهرجان نوز مثلا تعود الذاكرة إلى المرحول ، الهودج ، إلى قطعان الإبل فضلا عن الصناعات التقليدية التي يتولى متحف الصحراء التعريف بها فيما تتولى الجمعيات ممثلة في جمعية مربي ـ تطوير المنتوج الفلاحي من خلال الحفاظ على الثروة الحيوانية ، وحماية المراعي من التحطيب وأحداث مراعي جديدة مع العمل على ترشيد استهلاك اللحوم (لحوم الإبل) . أمّا السياحة فهي الأخرى تعرف بالمنتوج المحلي لنوز وتوفر في ذات الوقت مواطن شغل دائمة أو موسمية . ولكن الجانب الأهم لظاهرة السياحة تعريفها بجغرافية نوز حيث توفر للسياح وسائل التنقل في الصحراء وهي إما الإبل أو سيارات وكالات الأسفار outteriainولكن مهرجان نوز شجع كثيرا السياحة الداخلية حيث تقبل العائلة التونسية « على السياحة الصحراوية بنوز أيام العطل (الشتاء والربيع) وقد ساهم المهرجان في هذا الإقبال فللمهرجان زواره وهم في إزدياد » (16)

ـ بعض الملاحظات الختامية :

ـ كتاب مدينة نوز : نموذج التداخل بين البداوة والحضارة في الجنوب التونسي " يمثل

دراسة سوسيولوجية معمقة لواقع بكر ، وإن لم يكن بكرا فإنه لم يدرس سوسيولوجيا ويعمق بمثل هذه الدراسة حيث غلبت على الدراسات السابقة نزعة الوصف .

ـ هذا الأثر السوسيولوجي الذي وظف فيه الباحث علوما أخرى كالجغرافيا والتاريخ والانتروبولوجيا بالإضافة إلى استفادته من الشعر الشعبي والأمثال الشعبية باعتبارها " سجل الحياة الصحراوية " (17) مكننا من التعرف على عوامل التحول بالصحراء التونسية ، ومظاهر ذلك التحول وهو وإن لم يتضمن مقارنة ـ فقد أبرز لنا خصوصية البادية التونسية تلك الخصوصية التي تبرز في طرق تكيفها مع حياة جديدة . ولعل الباحث قد يعمد إلى تأليف نص سوسيولوجي مبني على المقارنة .

وعموما يندرج هذا المصنف (مدينة توز) ضمن " الطريقة " الاستقرائية " الحديثة التي تبدأ بدراسة الجزئيات لكي تتوصل منها إلى فهم الكليات العامة " (18) .

وهو يندرج في إطار اشكالية عامة هي التغير الحضاري وتنمية المجتمع ، وهو يبرز أهمية العلوم الإجتماعية في دراسة عمليات التبدل والتغير التي تعرفها المجتمعات البشرية والدور المتعاظم لمؤسسات البحث العلمي وفي مقدمتها الجامعة .

الكتاب روية لعوامل التحول الإجتماعي في الريف التونسي وهو ما يبرز أهميته ولكن في الواقع التمش الذي أتبعه المؤلف وخاصة البحث في علاقة المعطى الطبيعي بالواقع الإجتماعي وهو تمشي خلدوني في الأصل « إن العمران البشري يتدرج إذن من البساطة إلى التركيب والتعقيد والعامل الأساسي والمنطلق الأول في هذا التدرج هو اختلاف طبيعة الأرض من حيث الخصب والجدب » (19) هو الذي يمنح هذا المصنف أهمية أو بالأحرى صرامة معرفية ومنهجية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

* الهوامش :

1) الفقيه (أحمد ابراهيم) : الصحراء وأشجار النقط ، مجموعة قصصية ، الدار العربية للكتاب 1979 ص 87 .

2) نجاحي (محمد العزيز) :مدينة توز نموذج التداخل بين البداوة والحضارة في الجنوب التونسي، دار سحر للنشر ص 21 .

3) المرجع نفسه ص 11 ـ 4) المرجع نفسه ص 11 ـ 5) المرجع نفسه ص 11

6) المرجع نفسه ص 10 ـ 7) المرجع نفسه ص 10

8) ابراهيم (سعد الدين) النظام الإجتماعي العربي الجديد : دراسة عن الآثار الإجتماعية للثروة النفطية مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1982 ص 24

9) حمدان (جمال) : الجماهرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، سلسلة دراسات في الجغرافيا السياسية ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ص 213 .

10) نجاحي (محمد العزيز) المرجع السابق ص 177 . ـ 11) المرجع نفسه ص 189

12) المرجع نفسه ص 189

13) المرجع نفسه ص 25 ـ 14) المرجع نفسه ص 143 ـ 15) " " ص 179

ـ 16) " " ص 194 ـ 17) " " ص 109

18) الوردي (علي) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، بغداد ، 1965 ص 8 .

19) الجابري (محمد عابد) : العصبية والدولة ، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ص 146 .

النحـــو العـــربـــي
النشأة ـ واختلاف المنهج

بقلم : محمد نبيل فرادي

يعتبر التطور اللغوي واتساع حقوله الدلالية حقيقة علمية ثابتة إذ أن اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تخضع لمبدأ التطوّر وتتفاعل مع الزّمن فهي إذا ظاهرة دينامية تتأثر بالمحيط الحضاري وبالمتغيّرات الإجتماعية والسوسيوثقافية .

ولأنّ اللغة العربية لم تخرج عن هذا الإطار فإنّها مرّت بتحوّلات خطيرة في تاريخها خضعت خلالها لعوامل التطوّر حينا والتقهقر أحيانا ، ويبرز ذلك خاصّة في موروثنا اللغوي . ومما لا شكّ فيه أنّ اللغة العربية كانت من أهمّ العوامل التي ساهمت في نهضة الأمّة ورقيّها وقد حفظت التراث العربي بأصنافه ،السياسي ، الإجتماعي ، العلمي ...

ولأنّ « **الإنسان عندما يفكر ليصعد في مدارج الحضارة ، إنّما يتخذ من اللغة وسيلته الى التفكير** ... » (1) . فإن العرب اهتموا بلغتهم فدرسوها وتوسعوا في ذلك . وبدأ اهتمامهم بالنحو منذ القرن 1 هـ ، إذ قام أبو الأسود الدؤلي بوضع الأسس لهذا العلم عن عاصم قال : « **أول من وضع العربيّة أبو الأسود الدؤلي فجاء الى زياد باليسرة فقال : إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم فتغيرت ألسنتهم ، أتأذن لي أن أضع للعرب كلاما يعربون ويقيمون له كلامهم ؟** فقال : « لا ، قال : فجاء رجل الى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا فترك بنون ، فقال زياد : أدع لي أبا الأسود ... فقال له : ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم ... » . (2)

وكان ابن اسحاق الحضرمي أول من أدخل المنهج التحليلي ثم تبعه هارون بن موسى فضبط هذا العلم ويعتبر عيسى بن عمر أوّل من ألّف فيه فوضع كتابين سمّى أحدهما « الجامع » والآخر « المكمّل » فقال الشاعر :

بطل النحو جميعا كله ... غير ما حدث عيسى بن عمر
ذاك « إكمال » وهذا « جامع » ... وهما للناس شمس وقمر (3)

ثم تتابعت الكتابات حتى جاء سيبويه وألف كتابه الذي عدّه النحاة زبدة ما ألف في تلك الفترة « فلقد كان لما صنعه أبو الأسود من ضبط أواخر الكلم في آي القرآن الكريم بداية للتفكير في العلامة الإعرابية ، ثم علاقات التركيب ، وقد بنى تلاميذه على هذا الأساس و حتى قبض الله للعربية شيخها الخليل بن أحمد ، فاكتمل بناء النحو على يديه ، بما وضع من الأصول والمصطلحات ، فقام النحو على أبواب ، وفصول ، وتمايزت فيه المتشابهات وكان كتاب سيبويه قمّة النّضج لعمل أولئك الرواد من القراء ... » (1)

ولم تكن نشأة علم النحو بمحض الصدفة وإنما دعت الى ذلك أسباب عديدة لعلّ أهمّها اختلاط الجنس العربي بأخلاط وأجناس أخرى بعضها ضارب في أعماق الحضارة والتاريخ مما هيّأ الجو المناسب لتوفر محيط فكري واجتماعي خصب أثرى الرصيد المعرفي والحضاري العربي ، وقد كان تهافت الموالي على تعلّم اللّغة العربيّة وحبّهم الشديد للغة للدين والدولة الجديدين ، عاملا مهمّا ، إذ فسح المجال لتسرّب الحكمة الأجنبيّة ، فتأخرت الدراسات والبحوث اللغوية خاصة بالمنطق الأرسطي اليوناني وكثر الجدل والمناظرات ، وتعدّدت الآراء في المسألة الواحدة .

وأمام اتساع دائرة البحث اللغوي ، عمل عدد من العلماء على ضبط قواعد لغوية عامّة تجمع ما تفرق من الآراء وتقنن اللغة وكانت غايتهم الأولى من ذلك هي استنباط القواعد والقوانين المؤسسة لعلم النحو حتى لا يقع اختلاف في فهم النص القرآني وتأويله . وقد ميّز تاريخ الدراسات النحوية العربية ، ظهور مدرستين متنافستين هما مدرسة البصرة والكوفة . وقد أدى الإختلاف في المنهج بينهما الى اختلاف النتائج التي توصل إليها كل منهما ، وانعكس ذلك على الرصيد الثقافي ، والمعرفي اللغوي بالفائدة ، إذ كثر الجدل واللجاج وسعى كل منهما الى تدعيم آرائه ، وتسببت هذه النزعة في اثراء مجال البحث اللغوي وتوسع ميادينه . وسوف نتبيّن فيما يلي أهمّ خصائص مدرستي البصرة والكوفة ، لأنّ هاتين المدرستين كان لهما الأثر البعيد في تاريخ النحو العربي .

مدرسة البصرة

أوّل ما نشير إليه هو تأثر مدرسة البصرة بعلم الكلام ، وقد بدأت ملامح هذا التأثر تبرز في نهاية ق 1 هـ وتجلت خاصة في ق 2 هـ ويعود هذا التأثر إلى عدة عوامل من أهمّها الاستقرار السياسي الذي عرفته البصرة في هذه الفترة فغدت ملتقى أهل الملل والنحل وكثر الجدل والمناظرات . كما أثرت حركة النقل والترجمة في ق 2 هـ مجالات اهتمام العلماء خاصة بعد أن ظهر كتاب المنطق لأرسطو في مدينة البصرة نفسها فكان للترجمة تأثير كبير على منهج البصريين في البحث اللغوي . وتمثل هذا التأثير في ميل نحاة البصرة الى الأخذ بمبدأ القياس وتفضيله على مبدأ السماع والرواية فخالفوا بذلك أهل الحديث وأصحاب القراءات الذين كانوا يخاصمونهم ويناصبونهم العداء لأن البصريين اعتدّوا بأحكام العقل ومهّدوا السبيل للحكمة الأجنبيّة فتأثروا بالأفكار الدخيلة وبالغوا في الأخذ بتلك الأفكار والآراء حتى أصبحوا منعوتين بصفة « أهل المنطق » بل ان تأثر نحاة البصرة بآراء الموالي وبالفلسفة اليونانية ، جعل بحوثهم اللغوية تجنح الى الطابع العلمي الفلسفي .

فأحيطت اللغة بهالة من التقديس والتعظيم استحال معها التعامل مع اللغة بصفتها ظاهرة اجتماعية قابلة للتطوّر والتغيّر ، وانتفى معها أيضا مبدأ الصيرورة التاريخية التي تجعل اللغة كغيرها من الظواهر قابلة للتبدل والتغيّر . ولعلّ نتائج ما آلت اليه البحوث اللغوية عند البصريين يعود أساسا الى ما تتميّز به مدرسة البصرة نفسها ، فقد أعطت هذه المدرسة الأولويّة المطلقة لمسألة تقنين اللغة ووضع قواعد تحددها « فأهم غرض هو وضع قواعد عامة للغة ... » (1) لكن اللغة لا يمكن أن تحصر جميعها في إطار قواعد عامة إذ لا بد من وجود ظواهر لغوية شاذة

لا تنطبق عليها القواعد العامة مهما تنوّعت واتسعت . وظاهرة الشواذ في اللغة شغلت كثيرا نحاة البصرة فأرادوا تجاوزها انطلاقا من مبدأ ـ الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه ـ وهذه العملية لا تعدو في الواقع الا أن تكون عملية تنظيم للغة « بإهدار بعضها » (2) وفسروا هذه الظاهرة باعتبار أن ما سمع من العرب مخالف لقواعدهم إنّما هو مسائل جزئية بسيطة لا يجدر الاهتمام بها ، كما حاولوا في عديد الأحيان أن يتئولوا الشاذ تئويلا يتفق وقواعدهم ولو بنوع من التكلف ... وعموما كان نحاة البصرة يستنبطون القواعد والقوانين اللغويّة « وينتظرون أن تنطبق عليها أوضاع اللغة وأوصافها وصورها ، فإذا تعذر ذلك لا يجدون الخلل في تلك القواعد التي اتخذت شكل القوالب الجاهزة ، بل يظنونه في اللغة نفسها مما يدفعهم إلى التأويل والتفسير البعيدين ... » (3)

مدرسة الكوفة :

سلك الكوفيون في بحوثهم اللغويّة مسلكا مغايرا لمدرسة البصرة ، فوسعوا دائرة أخذهم اللغة لتشمل كل ما جاء عن العرب عكس البصريين الذين أهملوا كثيرا من اللهجات العربية وخاصة تلك المتاخمة لأقوام من غير العرب وأهملوا أمثلة لغويّة عديدة كان من الممكن أن يستغلوها ويوسعوا بها نطاق بحوثهم ـ وقد عمل نحاة الكوفة بمبدأ السماع والرواية فكانوا لا يهملون كبيرة ولا صغيرة ، بل إنهم اعتنوا بالمثال الواحد لكي يعمّموا الظاهرة ويقيسوا عليها وأجازوا للناس أن يستعملوا ما توصلوا إليه في بحوثهم ، رغم أن ما توصلوا إليه لم يكن من قبل معروفا أو منطبقا على القواعد العامة ، فموقف الكوفيين من ظاهرة الشواذ تبدو في الواقع « ... أساسا لوضع قاعدة عامة ... فهم أكثر تجويزا للوجوه المختلفة في المسائل ... » (4) وقد كانوا « إذا سمعوا لفظا في شعر ، أو نادر كلام جعلوه بابا » (5) وكانوا يتشبثون ويدققون في كل شيء ، واعتبروا اللغة كائنا اجتماعيا قابلا للتغيّر والتبدل إذ الألفاظ عندهم لا تبقى جامدة وهي تخضع للتأثر والتأثير لذلك تتغير بالاستعمال وتخضع لظاهرة الصيرورة التاريخية .

ولئن لم يستعمل نحاة الكوفة مبدأ القياس كما استعمله البصريون فإنهم لم يهملوا هذا المبدأ تماما وكانت جل أعمالهم تتركز أساسا على الرواية والسماع وخاصة الملاحظة والاختبار .

خاتمـــــة :

إن إلقاء الضوء على جوانب نشأة علم النحو عند العرب بيّن أن الاهتمام باللغة إنما هو ضرورة حتمية للتقدم والتطوّر وكذلك حفظ الموروث بكل مكوّناته الثقافية ، الإجتماعية ، السياسية ...

كما بيّن أن الاختلاف في منهج البحث اللغوي وإن كان مبنيا على المنافسة كما هو الحال بين مدرستي البصرة والكوفة فإنه يؤكد تميّز اللغة العربيّة عن اللغات الأخرى بشموليتها وانفتاحها .

ولقد كان لاختلاف المنهج كذلك دورٌ فاعلٌ في تنويع مصادر البحث اللغوي عند العرب وإثراء رصيدهم المعرفي في هذا المجال .

ولئن ادعى بعض المهتمين باللغة العربية اليوم أن النحو العربي اكتمل ونضج ولم يعد بحاجة إلى الدراسة والتمحيص ، وادعوا أنه بات من العلوم التي .. طابت واحترقته (6) فإن ذلك يكشف عن عمق التطوّر الحاصل في مجال البحث اللغوي العربي ولكنه أيضا يدعونا إلى عدم تصديق هذه القولة ونبذها لأن اللغة والنحو العربي بصفة خاصة يجب أن يتطوّر بشكل فاعل ومستمر .



* إحالات :

أ) د . الربيعي جاسب : مقال النحو شرف العربية وسياجها مجلة الثقافة العربية العدد الأول ـ السنة السابعة عشرة ص 71.

2) نفس المرجع ص 74

3) نفسه ص 74

5) د . الربيعي جاسب ـ مقال : النحو شرف العربية وسياجها » مجلة الثقافة العربية » العدد الأول السنة السابعة عشرة ص 74 .

6) د . الأسد ناصر الدين ـ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » نشر دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ط 7 ـ 1988 ص 433 .

7) نفس المرجع ص 433 .

8) د . عباس حسن ـ مقال : اختلاف في المنهج .. ـ مجلة العربي العدد 380 ـ ص 175 ـ 176 ـ يوليو 1990 .

9) د . الأسد ، ناصر الدين ـ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ـ نشر دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة السابعة ـ 1988 ص 434 .

10) د . عباس حسن ـ مقال « اختلاف في المنهج » مجلة العربي العدد 380 ـ ص ص 175 ـ 176 ـ يوليو 1990 .

11) د . علوش جميل ـ مقال « مشكلات في معالجة النحاة لموضوع النداء » مجلة الفيصل العدد 164 ـ السنة الرابعة عشرة ـ أيلول (سبتمبر) 1990 ـ ص ص 10 ـ 13 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وصف الأماكن والمواقع في رواية
« ونصيبي من الأفق »

بقلم : بلهوان حمدي

* مقـــدمـــــة :

إنّ تحليل أشكال التّعبير يبدو أكثر أهميّة والتصاقا بالفعل الأدبي ، لأنّه أكثر مقاربة له . ويعتمد هذا التّحليل على دراسة العناصر الفنيّة في النص الأدبي . وأهمّ هذه العناصر في الرّواية : الزّمن والضمائر والأمكنة .

وإذا كان السّرد يؤكد على إبراز الأحداث والأعمال في بعديها الزّماني فإنّ الوصف على العكس من ذلك لا يأخذ بعين الإعتبار الأحداث والأعمال التي تتضمّنها القصّة ، وإنّما يسعى إلى الكشف عن الأشياء ومكوناتها ، والأشخاص وطباعها الخلقية وبالتّالي فإنّه يوقف سريان الزمن ليطلق سريان الأشياء في المكان ويجعل القصّة مجموعة من المشاهد والأفعال .

والوصف يشغل حيّزا مهمّا في رواية « ونصيبي من الأفق » للروائي التّونسي عبد القادر بن الشيخ . حين يوقف الرّاوي سير الأحداث فإنّه يعمد للوصف فيخلق شيئا من الرّاحة ويضعنا وجها لوجه أمام مشهد ما ، مثيرا في القارئ التشويق والحيرة عند موقف حرج .

فالوصف يرى الأشياء ويحدّد المواقع ويكشف الرّوابط بين الأشخاص والطّبيعة ويطلق الخيال في عوالم مجهولة وينصب هذا البحث على وصف الأمكنة والمواقع في هذا الأثر الروائي الكبير « ونصيبي من الأفق » . يلعب وصف المكان دورا كبيرا في الرّواية .

« فالأفق » في العنوان هو المدينة أو العالم الأرحب الفسيح ، هو « هناك » ، وهو نقيض القرية أو « هنا » التي تضيق بأهلها فتقطع أنفاسهم ، أنفاس « فاتح » و « سالم » .

وهذا التّحديد الدّقيق للأمكنة يفاجئ القارئ منذ السّطور الأولى ، فراوي القصّة هو من قرية على سفح الجبل الصّامت . فيها بيت سالم والمقهى والسّانية والعين والمدرسة والزّاوية ...

هذه هي أهمّ العناصر المكانيّة أو الفضاءات التي تؤلّف القرية أو البلدة مسرح أحداث « فجر البارحة » و « بارحة البارحة » .

1 . هنا ، أو القـــريـــة :

يتحدّث الرّاوي عن مسقط رأسه بتفصيل حتّى يكاد يشكّل العنصر صورة تشكيلية واضحة المعالم ألوانا ومنعرجات وظلالا .

* فالبيت ككلّ البيوت كوخ « على سفح جبل صامت » يفتحه سالم مذعورا و إذا « البيت ظلام يطعن الشّخير الفضاء المستطيل » ص 38 ، فهو امتداد لطبيعة القرية الفقيرة من طين يزرع فيه القمح والزيتون . النّباتات نمت في الحيطان وتسرّب إليها الماء من الأرض المزروعة « هنا جدار عديد الثّقب تخاله أعشاش الثّعابين » ص 45

فالبيت يرتبط مصيره بمصير السّانية . إذا اخضرّت اخضرّ وحين يجتاح القحط الحقول يجتاحها أيضا .

* **المقهى** : في البلدة مقهى باب السّوق وقوس النّصر ، فهو مكان متشعّب الوظائف يستقطب جميع الرّجال والشّباب القرويين . هي ملجأ من لا عمل ولا شاغل له « حيث برنس الدف ، والأذان صاغية تنتظر » ص 47 فهي مقرّ وكالة الأنباء والسّفر يخبر فيها سالم النّاس عن نضوب العين وللهو مجال فيها « تصفّق الأيادي المؤيدة وتنشد الأفواه المرتّلة أعذب عبارات اللّهو » ص 93

* **العين** : للماء في الرّيف قيمة لا يوازيها شيء آخر يصنع الخصب أو القحط ، يرمز للبساتين التي احتكرها نفر قليل بعد أن كانت في قبضة اليد : « كنّا قديما ... يا نعم يا سيدي ، نسقي بساتين القرية وزياتين القرية وتشرب وتغسل نساؤنا » ص 40 . بالعين يرتبط نشاط الأهل ومصير سالم ، تشدّه للأرض وتبرّر مكوثه بالبلدة رغم « ريّة الأموات العارية يلمع بياض قبور على التّربة الصّفراء » ص 56 .

وعبد القادر بن الشّيخ روائيّ وصّاف شدّه مشهد نشوح العين وأحزنه أكثر من أيّ شيء آخر صوّر تأثير الحدث النّكبة على استقرار هشّ لسالم وفاتح وتأثّر الجميع فزعا ودهشة « نشـ .. حت . العين نشـ ... حت ... وضواحي القرية المخضرّة تستعد قبل الأوان لغروب طال ولم يطل » ص 82

إنّ نشوح العين موجع للقلب ومأساة خلّفت لوعة : فالشيخ يقبّل أطرافها والمرأة تلطم وجهها وصوت المنادي عند صلاة الفجر ينعى « هذا ما وعد الرّحمان فانجز وعده تفنى الأشياء وتبقى الحياة للّه وحده » ص 99 .

فالمكان هنا متعدّد الدّلالات ، والعين عيون :

أ ـ عين الشّيوخ : « يا لطيف » وصمت

ب ـ عين الشبّان : دم وخبز وأرض وقمح وسمر عذب

ج ـ عين المرأة : أمّ ورضيع ونهار وحلم وحريّة وطهر ..

من هنا أنسن الروائي المكان هي ليست فضاء ميّتا أعزل من أي مضمون إنساني بل حسناء فقدتها القرية والبلاد هي بؤرة مفتوحة ومدى حيوي لإنسانيّة الإنسان

* **المعبد** : هو عشّ فسيح وأثر روماني صورته بائسة فهو « صامت . عشّشت فيه الغربان ووالت في محرابه الصّبيان » ص 114 وتبعا لذلك فقد أثار المحراب هواجسه وشجون سالم الموشّحة بحلم الرّحيل إلى أفق آخر يخاله أرحب « العمل قدّامه وخلفه أجرة قارّة وخبزة شهيّة ودجاج سيحقّق » ص 114 .

* **الزّاوية** : محطّة اضطراريّة بسبب المطر الهاطل . زاوية سيدي عبد السّلام الطائع : مسجد ومحراب . تابوت محاط بسياج من خشب منقوش . سناجق ملوّنة وقطع فضيّة فوق قبر . روائح وشق وجاوي وشموع ومناديل مطروزة من صنع عذارى بحرقة فرسان .

* **المدرسة** : هي أجمل شيء شيّدته الدّولة في فسيحة جميلة . انتصبت على أجمل ربوة بعيدا

عن السّوق .

فجمال المدرسة هو اعتقاد يؤجّجه شعور وإحساس عميقين بالإفتقاد والحرمان لأنّ سالم أمّيّ لم يتعلّم كجلّ أقرانه ، حرم نعمة العلم وتمنّاه لأخته الصّغرى . من هنا كانت المدرسة مدى إحساس مقيت بالضّيم والإستباحة .

والخلاصة أنّ القرية بجماله وبشاعته وسكونه وغليانه وائتلافه واختلافه هو كون موتور في كلّ الأحوال مسكون بالحركة ووباء السّفر والرّحيل من كلّ الأمكنة (الكوخ ، المقهى ، الجبل ، البستان ، الزّاوية ...) إلى أفق أزرق » محكوم عليه مسبقا بالتّلاشي لأنّه « سرعان ما تختطف الأيادي شبرنا من الأفق » ص 38 .

2 ـ هناك أو المدينة :

المدينة هي هناك . مسافة تبدو بعيدة كآخر الدّنيا برغم قربها الفيزيائي . فالبعد نفسيّ في مخيال فاتح وسالم .

هناك هي المجهول أو المغامرة الكبرى نحو آفاق أخرى محاصرة بالتّوجّس والخوف .

وفي الباب تبدأ المعاناة « لا يدخلنّ أحدكم هذه البقاع إلاّ بدعوة من أبرارها » ص 147 .

هي رحلة تبدأ ومعها يوم جديد سبقته ليلة فسالم يجوب كلّ المدينة ويطوف بين الشّارع والشّارع وبين الحيّ والحيّ وبين المسكن والمسكن يمشي ويقف في ساحة وساحة ويقصد السّوق والسّوق . فالمدينة مدينتين والعاصمة عاصمتين .

الأولى للأبناء البلد « الأبرار » والثّانية للنّازحين الغرباء .

ويمكن رصد بعض الفضاءات التي توقّف عندها سالم المسافر الحالم في « مدينة المدن » المنقسمة إلى شطرين :

* **مدينة النّازحين الغرباء** : يعمّرها الفقراء بائع الفطائر، بائع القلابي ودكّان الحشايشي ...

أ ـ **الأنهج** : فوجئ سالم بأنهج المدينة فهي « سوداء قليلة الضّياء شديدة الرّطوبة يتدلّى من فوقها الحشيش ... » 156 .

ب ـ **الوكالة** : وهي مقرّه الجديد مع صديقه عثمان كلّ ما فيها بائس ، بابها عتيق مسمّر هرم ، ضئيلة الضّياء .

ويصرّ الرّاوي على تحديد موقعها « وكالة الهناء ، 8 نهج الدّفلة »

ج ـ **السّاحة** : « ساحة الشّعب » تعجّ بالباعة والعربات وتعرض أقمشة وأزياء جماهيرية الألوان » ص 168 فهي إلحاح كالتّسوّل وسوق بلا مبتاعين .

د ـ **المقهى** : مقهى العروبة ، حيث روائح المرق والمقلي ، حرفائه من العرب » يرتدون الكرفون والبرنس والقشّابية .

لكنّه رغم بؤس الفضاء فإنّ سالم الضّائع الشّريد يحسّ ببعض الأنس والتعجّب . فالمدينة خيّبت آماله وكذّبت نبوءته .

* **مدينة الأبرار** : وهي مدينة أولاد البلد والمحظوظين بحثا عن شغل ، رافق سالم عثمان للأوتيل ثمّ جاب الشّوارع والحيّ الجديد ...

أ ـ الأوتيل : سمّى باسم الله ودخل يهذي « الماكلة والشّراب في الأوتيل ... حتّى من قهوة الصّبّاح » ص 191 .

انتبه سالم إلى بابه العربيّ ومساميره المذهّبة و « البيسين » والزّليز في لون الماء . والشّختورة بجنب الشّختورة . لكنّ الحلم تبخّر وعجزه عن اقتناء كسوة بيضاء حال دونه والشّغل

ب ـ العيّ الجديد : مختلف عن البلاد العربي القذرة المتّسمة . فهو هندسيّ الشّكل ، نظيف ، أبيض ، له رائحة الزّفت . عالم بلّوريّ الجدران .

أمّا الشّوارع فهي جميلة معقّدة والعمارات شاهقة « تدوس الفضاء المسطّر » ص 172 .

خاتمـــة :

هل يمكن القول إنّ الرّواية لوحتان . الأولى تتّصل بالقرية والثّانية بالمدينة وإنّ المكان هو البطل في « ونصيبي من الأفق » هل هي قصّة « سالم » مع المكان والفضاءات يتراوح بين الأمل المبعثر والخيبة المرّة .

بين قرية « تعلّق بها فأحبّها ، أحبّها محبّة الرّضيع الضّمآن لثدي أمّه ... » ص 199 ومدينة مهما كانت مغرياتها هي كما حدّث عثمان سالما « بيعْ واشْر راهو في ها البلاد هذي ما ثمّة إلاّ البيع والشراء » ص 65 .

نزع الرّوائي فيها منزعا سينيمائيّا يراوح بين البعد والقرب ويصوّر تصويرا دقيقا الأشياء فيما يشبه الصورة الحيّة فيها من ارتسامات ومشاعر البطل الفكرة سالم ومواقف الرّاوي الأصليّ تجاه المدينة (العاصمة) .

فالقرية ارتبطت بالنّقاء والطّيبة والبساطة ، بينما ظلّت المدينة بشعة معقّدة وجحودة . في منفى للأحلام ولا مبالاة وقسوة .

وإذا نزّلنا الرّواية في خانة المدرسة الواقعيّة النّقديّة تبيّنا « أنّ الرّيف يشكّل نقطة جذب تغري لأنّها مركز الصّراع وبؤرة المظالم والفقر والقهر والتّهميش ... فهي تغري صراحة أو ضمنا بالمواجهة والرّفض أو التمرّد » كما يقول الدكتور « محمّد حسن عبد الله في كتابه « الرّيف في الرّواية العربيّة .

لكنّ الرّواية تكسوها مسحة رومانسيّة حالمة فيها تعاطف وأسى تجاه الرّيف وما يستدعي من إحساس بالجمال عميق وتناغم مع الطّبيعة والحياة وعطف على القهر بأشكاله النّفسيّ والماديّ .

---

* المراجع :

1) عبد القادر بالشيخ : ونصيبي من الأفق ـ سلسلة عيون المعاصرة ـ تونس 1984 ـ تقديم حسن الصادق الأسود ـ ط . دار الجنوب للنشر .

2) مصطفى التواتي : جلالية الريف والمدينة في القصة التونسيـــة ـ دار محمـــد علي الحامـي (تونس 1992)

3) د . محمد حسن عبد الله : الريف في الرواية العربية ـ عالم المعرفة ، عدد 143 .

4) الأسلوبية منهجا نقديا ـ محمّد عزّام ـ ط . منشورات وزارة الثقافة دمشق 1989 .

أدباء من مصر
كتاب جديد لرشيد الذوادي

بقلم : رابح لطفي جمعه
القاهرة

الأستاذ رشيد النوادي ، أديب عربي كبير ضرب بسهم وافر في ميدان الأدب والتاريخ والنقد ، ولا أكاد أعرف أديبا تونسيا قدره أدباء تونس وأحبه أدباء مصر كالأستاذ رشيد الذوادي ، فهو بقدر عشقه لتونس وبخاصة بنزرت مسقط رأسه ـ فهو أيضا عاشق لمصر يحرص على زيارتها كل عام تقريبا ، ويلتقي بأدبائها وشعرائها ورجال الصحافة والفكر فيها ، وتجمعه بهم لقاء ات أدبية ممتعة ومشاركات في منتدياتهم الفكرية ، يأسر هؤلاء وأولائك بأحاديثه الطليه الشيقة ، ويبهرهم بفكره المستنير وثقافته الموسوعية التي تجمع بين الأصالة بكل عراقتها والحداثة بكل طرافتها ، يتناول في كتاباته العديدة ومؤلفاته المتنوعة قضايا فكرية هامة ويلقي الظلال على شخصيات من الماضي والحاضر تركت بصماتها على الحياة الإجتماعية والثقافية في تونس وأثرت الساحة الأدبية فيها . وهو مع ذلك يحرص كل الحرص على الدعوة إلى الأخذ بأسباب النهضة الفكرية ، ويدعو إلى الاعتزاز والافتخار بماضي الأمة العربية ويؤكد باستمرار على فضل العرب والإسلام على الحضارة الغربية ، ويبشر بمستقبل مشرق زاهر في ظل الحرية والكرامة والإخوة الإنسانية

إنه كاتب ومفكر له رسالة يضعها نصب عينيه في كل ما يكتب ويسطر ، رسالة لا يكاد يخطئها القارئ ، تلك هي ربط الماضي بالحاضر ووصل الحاضر بالمستقبل والحرص على خدمة الثقافة العربية الأصيلة .

فبعد أن نشر كتابه « وجوه من بنزرت » سنة 1993 ، أتحف المكتبة العربية 1995 بكتابة الجديد « أدباء من مصر » .

وهكذا يثري الذوادي الساحة الأدبية بين الحين والآخر بكتاباته الجادة الممتعة في الأدب والنقد والتاريخ والحضارة العربية والقضايا الفكرية الهامة كالحرية والديمقراطية والإلتزام

وفي كتابه « أدباء من مصر » تحدث الأستاذ رشيد الذوادي عن أربعة عشر علما من أعلام الأدب والشعر والقصة والصحافة في مصر ، وقال في مقدمته معبرا عن حبه لمصر ولأدبائها إن « مصر هي العطاء الوافر ومصر هي ملحمة الأجيال ، ومصر هي مفتاح الديوان الحافل الملتزم الذي يستقطب شتى اهتمامات الشعراء والكتاب وأهل الفن عامة » .

أما الشخصيات التي تناولها في كتابه ـ وهي شخصيات أدبية وفكرية أمنت بعمق النظرة إلى الوجود وبحب العرب وبالإخلاص للفكر الحر ـ فيقول عنها ؟؟ إن أهمية هذه

الشخصيات في رأيي أنها تشكل إحدى الطلائع الواعية التي فهمت الماضي ووعت الحاضر وتطلعت إلى المستقبل وأسهمت بجهد وافر من أجل تعبيد طرائق قيم الحق والحق والخير والشرف » .

وقد حرص النوادي في حديثه عن هذه الشخصيات أن يقرنها بعبارة توضح لنا أهم ما تتميز أو عرفت به من سمات ، فتوفيق الحكيم شخصية رائدة في أعمالها المسرحية فهو « في ذاكرة الأمة » ، ونجيب محفوظ « أديب الحارات الشعبية » ، ومحمد عبد المنعم خفاجي « الأديب المفكر » ، وأحمد رامي « الشاعر الفنان » ، ووديع فلسطين صاحب « مشوار من النضال الفكري » ، وعبد العزيز شرف « شاعر التعادلية » ، والهمشري « شاعر أبو للى » ، ومختار الوكيل « الأديب والشاعر » ، ومصطفى عبد الرحمن « شاعر الأغنية في مصر » ، وحسني سيد لبيب صاحب « تجارب في كتاباته » ، وجمعه محمد جمعه « نموذج من الأدباء المنحازين إلى الطبقات الفقيرة » .

على أن أهم ما يلفت النظر في الشخصيات الأدبية والفكرية التي تحدث عنها النوادي في كتابه ، هي أنها شخصيات تميز أصحابها بنوع من أنواع الأدب أو جمع بعضها بين أكثر من جنس من أجناس الأدب ، فمنها الشاعر ومنها الأديب والشاعر ومنها كاتب المسرح أو القصة ومنها الأديب والناقد ... إلخ . وعلى ذلك فكتاب « أدباء من مصر » أشبه بالبانوراما التي تعرض علينا شخصيات أدبية وفكرية أسهمت بكتاباتها المتنوّعة في مجال الأدب والنقد والشعر والقصة والمسرح والصحافة والتاريخ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والنوادي في حديثه عن هذه الشخصيات صاحب أسلوب خاص متميز له مذاق شيق ممتع ، فهو إلى جانب مصادره العامة التي استقى منها حديثه عن تلك الشخصيات ، يسوق لنا بعض ما جرى بينه وبين بعضها من لقاء ات ومحاورات أدبية وفكرية ، تلقي المزيد من الأضواء على الشخصية التي يتحدث عنها ، كمجالسه ولقاء اته مع توفيق الحكيم في بيته أو صالونه الأدبي بجريدة الأهرام ، وكذلك لقاء اته بنجيب محفوظ بمقهى الفيشاوي ومقهى ريش ومقهى علي بابا بالقاهرة ، ولقائه بالشاعر أحمد رامي في مقهى جروبي بالقاهرة ، ولقائه بالأديب رضوان ابراهيم في تونس ، ووديع فلسطين وعبد العزيز شرف ومختار الوكيل ومصطفى عبد الرحمن وإحسان عبد القدوس في القاهرة .

ففي هذه اللقاء ات يسجل لنا النوادي بعض الأحاديث والمحاورات التي جرت بينه وبين تلك الشخصيات ، وهو بذلك يذكرنا بالجاحظ في مؤلفاته والجهشيارى في « نشوار المحاضرة » وأبي حيان التوحيدي في « الامتاع والمؤانسة » ، ومن هنا كان كتاب النوادي « أدباء من مصر » كتابا شيقا ممتعا ، يجمع بين اللذة العقلية والفائدة الفكرية ويسد ناحية هامة في تاريخ الأدب المصري المعاصر .

الخطاب السياسي في روايات عبد الرحمان مجيد الربيعي

بقلم : سليمان البكري

ـ العراق ـ



عبد الرحمان مجيد الربيعي

في تجارب عبد الرحمان مجيد الربيعي الروائية ، نجد أمامنا خمس روايات في حسب تسلسل صدورها " الوشم " 1972 ، " الأنهار 1974، " القمر والأسوار "1976، " الوكر " 1980 ، خطوط الطول خطوط العرض " 1983 .

المتتبع لهذه الروايات يجد فيها خطابا سياسيا يؤطر رؤيا الربيعي الفكرية والفلسفية للحياة وللصراع الدائر في مرحلة معينة من تاريخ العراق المعاصر .

ينطلق الروائي في أعماله عن موقف سياسي وفكري عبر خطاب يتعامل من خلاله مع شخوصه بحساسية بالغة مميزة ، تقع تحت تأثير الحصار الدائم الذي تفرضه الأنظمة الرجعية على المناظلين ، وملاحقتهم لغرض تدميرهم .هذا الموضوع الأثير لدى الروائي والذي يتعامل معه بفنية مجربا بنية روائية جديدة متجاوزا الطريقة الكلاسيكية المتبعة في كتابة الرواية وينفذها بتحطيم الوحدات الزمنية ، مستفيدا من طريقة " الفلاش باك " والمونولوج الداخلي بأتساق سردية باتجاه الذات / أنا ، والمخاطب / أنت ، والغائب / هو ، وهي فيحقق أفضل النتائج في الشكل والموضوع .

إن الروايات الخمس عالجت مواضيع سياسية لمرحلة معيّنة من المراحل التاريخية السياسية التي مرت بالعراق ، وطبعت بصماتها على الذاكرة فيأتي المتلقي ليتعرف على فترة مصادرة الحريات واعتقال المناضلين ، واجبارهم على تقديم براء ات من انتمائهم السياسي من خلال رواية " الوشم " .

في حين عالجت " الأنهار " وقائع الاضراب البطولي للطلبة العراقيين وانتفاضة الجماهير الشعبية ردا على هزيمة حزيران عام 1967 وتكريس النظام السياسي لها ودوره فيها .

وكشفت " القمر والأسوار " عن الواقع السياسي في العهد الملكي وطرحت من خلاله قضية الانتماء السياسي ونضوجه من منطلق قومي .

فيما كانت " الوكر " تعالج الواقع السياسي الذي فرضته ردة تشرين ولجوء عدد من المناظلين الشباب للعمل السري وجاء ت " خطوط الطول خطوط عرض " لتعالج هموما عربية لواقع سياسي يتجاوز الواقع العراقي ليشمل مساحة أوسع في بعض أقطار الوطن العربي ، وتنتساء ل لم الاهتمام بالجانب السياسي في كتابة الرواية عند الربيعي ، وتفضيله على الجوانب الأخرى ؟ يبدو الجواب واضحا فهو يكتب من تجربة عاشها ، تجربته الحياتية في لعبة السياسة مع أبناء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جيله وما طبعته من بصمات على ذاكرته ، استمد أبعادها من الواقع ، ولأنها تجربة قاسية ومريرة ، فقد تركت آثارها عميقا في النفس ، لأن حجم التشويه والزور كان يشغل معظم مساحاتها ، فأراد أن يدمره وينهيه ، ليحقق لطرفي المعادلة توازنها ويكشف أبعاد العلاقة للطبيعة الانتماء السياسي وما يمكن أن يحدث جراء ذلك في بلدان تعتمد السلطة فيها وجهة نظر أحادية ، أن شخصية المناضل المطارد ، المعتقل ، المعذب ، الموضوع بين المطرقة والسندان تظل أثيرة في خطابه السياسي الروائي ولأنه أحبها وأخلص لها ، فقد دخلت قلب المتلقي وفهمها كسلوك وعلاقات دون الغاء للآخرين الذين تعاملوا معها بحالات مختلفة ومن مواقع متعددة .

فالبطل السياسي نقطة جذب وارتكاز في أعمال الربيعي الروائية ، يبرز فيها الانتماء الايديولوجي متفاعلا مع المرحلة السياسية ضمن شرطها المرحلي ومن خلال تصادم مباشر وغير مباشر مع وجهات نظر سلطوية فيؤدي إلى كارثة ، إلا أن راية النضال تظل مشرعة ، وفق هذا الطرح فإننا نلتقي بـ " كريم الناصري " في رواية " الوشم " و " صلاح كامل " في رواية " الأنهار " " وعزيز وهاتف وكامل " في رواية " القمر والأسوار " و " عماد " في رواية " الوكر " و " غياث داود " في رواية " خطوط الطول خطوط العرض " .

هذه الشخصيات رغم وجود مؤشرات سلبية في بعضها إلا أنها تتفاعل مع ما حولها من نماذج بشكل يثير الدهشة فتظل عالقة في الذهن ومؤثرة في الحدث مما يساعد على اغناء طروحات الرواية وتعمق جذورها . فـ " كريم الناصري " له تاريخ مثير يبدأ منذ اللحظات الأولى لتفتح وعيه الطبقي ، واندفاعه السياسي ، كان خاضعا لهذه المسألة الساخنة لأن إحساسه بسكان مدينته الذين لم يكن بينهم من يطيق تناول وجبة طعام واحدة في اليوم ، كان سببا مباشرا في انتمائه السياسي ، وهو رغم معاناته وبحثه وقراءته الكتب ومساهمته في المظاهرات ، وصلته المتجددة بالحياة كان يكتشف باستمرار خسارته تلك الخسارة كانت السبب الرئيسي في تحوله السياسي ، وبالتالي إلى سقوطه جراء نظرة أحادية الجانب للنضال الوطني ، فبانت جذوره الطبقية ذات الطبيعة البورجوازية التي عجزت عن تأهيله لخوض غمار تجربة ثورية يمكن الحفاظ على نقائها من الانزلاق نحو شرك النظام الدكتاتوري الرجعي لذا فإن سقوطه يتحقق أمام أول مجابهة اعتقال يفضح بعدها تنظيمه ، ويمعن في كسر أعناق رفاقه ويقدم براءته جواز مرور لأطلاق سراحه ، رغم ذلك ورغم البراءة / الوشم فإنه يظل في أعماقه يحمل صدى الصوت القديم ، صوت المنتمي وصوت الإنسان القضية لذلك يقول " إني بحاجة إلى فترة تطهير قد تطول وقد تقصر " .

وصلاح كامل في رواية " الأنهار " يكون اصلاحيا وتوفيقيا يملك السلاح الذي يوصله إلى مكانة مرموقة ولو على حساب الآخرين ، فهو امتداد لـ " كريم الناصري " بفارق التجربة طبعا ، فـ " الناصري " خاض التجربة وقاسى مرارتها وفشلها غير أن " صلاح كامل " لم يع أبعادها ، فكانت أحكامه ليبرالية ، لكن شخصيات " الأنهار " الأخرى وضمنها " صلاح " (شخصيات حية متفاعلة مع الأحداث وإيجابية ، ليس لمجرد تبادلها الكلمات والشعارات الثورية فقلما تفعل ذلك لأنها تمارس صراعا اجتماعيا تعبر من خلاله عن قوى اجتماعية ، ومن ثم فإنها تتظاهر وتشترك

في النضال السياسي ، إنها شخصيات تنظر إلى المستقبل ، وتسعى إلى تغيير الحاضر) (1)

ويكون " كامل وعزيز وهاتف " في " القمر والأسوار " قد رفضوا واقعا متخلفا ، وسعوا لتحقيق البديل بشكل فاعل عبر تكريس النضال الجماهيري ، الذي يستمد قوته وفاعليته من قيادة سياسية ثورية تختلف جذريا عن قيادات لأحزاب المرحلية ، لأن الأحداث تسير بهدوء وتحمل في داخلها أجنة التغيير متصاعدة تدريجيا ، وملتحمة كنتاج طبقي بين بورجوازية وطنية ، وقوى ثورية ضد ملكية اقطاعية رجعية تجسد وقائع أحداث تاريخية عاشها القطر العراقي في تلك المرحلة .

وفي رواية " الوكر " نجد همام وعماد وصادق ومحمود " شبابا أخرين يستقطبون الاهتمام وهم في الوكر الحزبي في ضاحية بشمال بغداد مع آلة طباعة قديمة حيث يعملون في طبع المنشورات التي يأخذها رفاق أخرون ليلا يحملونها في سيارة صغيرة لتوزع في أنحاء العراق .

لقد طرحت الرواية في خطابها السياسي الهموم العامة من خلال الهموم الشخصية للأبطال فموضوعية النضال فيها لم تكن تقتصر على شخوصها فحسب إنما كانت تتسع تدريجيا ، لتكون في النهاية قضية جماهيرية في إطار واقع مشحون بمعطيات وصور ذات تفاصيل دقيقة » (2) .

أبعاد الخطاب السياسي في الروايات الأربع يحمل كما رأينا جوانب سلبية وإيجابية تتراوح بين الفردية والجماعية ، وبين خصوصياتها النضالية صوت الجماعة يتصاعد في خط تطوري ليتوقف عند " غياب داود " بطل رواية " خطوط الطول ... خطوط العرض " ليتحول الخطاب السياسي من خلال هذه الشخصية إلى ممارسة في نوع خاص تتجلى بما يمكن أن نسميه " رباط الثقافة " لأن أبطال هذه الرواية مثقفون يحملون استقلالية شخصية ويخضعون لمعاناة متشابهة مشتركة تفرضها عليهم طبيعة الممارسات للسلطة في العديد من الأقطار العربية وعمق المأساة في واحد من تلك الأقطار ، وأعني بها لبنان وما يمكن لمرض الطائفية البغيض أن يفعل فعله فيه ، لقد أوضح الخطاب السياسي في هذه الرواية موقف العديد من الأقطار العربية في مرحلة خطرة عمل الجميع أن يضعونا فيها ، إنها المرحلة الرمادية هكذا يسميها " غياث داود " (يوما ما كان هناك الأبيض والأسود ، وكان الإنسان يعرف موقعه أما اليوم فقد وضع الكثيرون الخام على وجوههم ، وصاروا حداديين ، فكيف تتم عملية الفرز ، وكيف يكون التشخيص ؟ أما الشعارات فقد امتصت وألقيت قشورها في الهواء ، وفرغ كل شيء من محتواه) .

لقد حقق الخطاب السياسي لرواية " خطوط الطول .. خطوط العرض " محصلة ذات أبعاد سياسية واجتماعية فضح من خلالها الزور والتشويه اللذين يعمان الحياة العربية ، وهتك رموز الدجل والعقم ، فيها تجسد ذلك من خلال شخوص ذوي ميول ونزعات متباينة ، محكومين بشروط اجتماعية بالغة التعقيد ، وتاريخية مرحلية تفرض قديمها وتمسخ عظمة الإنسان فيها وقد تعامل الروائي معهم من موقع خاص ارتكز فيه على العامل الثقافي الذي يستمد مقوماته من ثقافته الشخصية كفنان تمتزج تجربته بالواقع المعاش ، بوعي وادراك ناضجين .

لقد أكد الخطاب السياسي في روايات الربيعي العلاقة القمعية التي تطبع وجود المواطن العربي على الساحة العربية وإنه إزاء صمت الخطابات الرسمية وفرضها لوحدة أحادية متوهمة صحتها ، وبالتالي قبولها ، كان لابد من الرفض والدعوة إلى التغيير في إحالات فكرية وسياسية وتنظيمية وهي دعوة تمتلك شرعيتها .

إن اندماج الخطاب السياسي بالخطاب الروائي للربيعي في مرجعية واقعية للزمن العربي ، على مشارف قرن جديد حقق شرطي الحداثة والمعاصرة وهو جزء من عملية الوعي بعصرنا الراهن ، وهي يقودنا إلى التغير دون شك .

---

* المراجع :

1) أحمد محمد عطية / تطور شخصية البطل الثوري في رواية الأنهار / مجلة الزداب . تشرين الأول (اكتوبر) 1975 .

2) سليمان البكري / الوكر وأبعاد التجربة النضالية / مجلة الطليعة الأدبية / بغداد ـ العدد الرابع ـ نسيان (أفريل) 1982 .

بقية ص 5

وبين شارع 9 أفريل بتونس ما يزال يحمل اسمه : « شارع فابري »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

53 ـ علي الشنوفي ـ م س ـ ص 173

54 ـ الشيخ بسيس ـ م س ـ ص 173

55 ـ محمود شمام : خلاصة تاريخ القضاء ـ م س ـ ص 98

56 ـ م ـ شمام : خلاصة تاريخ القضاء ـ م س ـ ص 91

57 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص 166

58 ـ علي الشنوفي : م س ـ ص 155

59 ـ محمود شمام م س ـ ص 92

59 مكرر : محمد بن الأصغر . التاريخ ، القانون والمحاكمة (1) ـ القانون الوضعي في دولة إسلامية ـ م س ـ ص 21 ـ الإحالة رقم : 68 .

60 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص 166

61 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص 166

62 ـ الشيخ بسيس : م س ـ ص ص 168 و 169

63 ـ محمد بن الأصغر : التاريخ ، القانون والمحاكمة (2) الشيخ محمد بيرم الخامس والقانون الوضعي (الخاص) ـ مجلة الإتحاف اللجنة الثقافية بسليانة ـ عدد 72 أكتوبر 1996 ص 10

64 ـ محمد القروي ـ الاستطلاعات الباريسية ـ م س ص 765 ، محمد السنوسي : الرحلة الحجازية ـ م س ـ ص ص 251 و 252 .

حفل شاي لدى " رجل محترم جدّا "

قصص قصيرة لإبراهيم درغوثي

بقلم : جنات اسماعيل

لا أدري هل من الضروريّ تقديم الأديب إبراهيم درغوثي بعد أن تناسلت أبناؤه الخمسة داخل البلاد وخارجها وشقت حجب الصمت إليكم لتحكيكم أشياء كثيرة عنكم وعنه ، عن الواقع والحلم ، عن المنشود والموجود بسلاسة الجنونيّ وحبكته الموغلة في شواغل النبض الإنساني .

أدرك جيّدا أنّ أغلبكم لا يعرف القاص والروائيّ إبراهيم درغوثي لأنّ الرجل لا يجري وراء الظهور المفزع ولا يتملّق أهل الملتقيات الذين يستضيفون وجوها من وراء البحر تختلط فيهم الملامح حتى صادف مرّة أن دعيت إمرأة للتقي روائي لتتحدّث عن تجربتها الروائيّة وليس لها ـ حسب شهادتها ـ إلاّ بعض مقالات منشورة في صحافة بلادها ومشروع رواية تفكر فيه !

وأنا هنا لست ضدّ الانفتاح على الثقافات الأخرى والتجارب الأدبيّة المختلفة ، لكن لكل مكيال كيله ولكلّ صورة ظلالها . وطننا هو الصورة ونحن ظلالها . وآثار إبراهيم درغوثي كانت أشمخ ظلال لصور تتقاطع لتتلاقى بألوان شتى بين الفرحية والقاتمة لأنّ الرجل يقف على جمر هذا العصر المجنون ويكتب من داخل الجرح بلا قفازات ، لأنّ الجنونيّ يمشي وقلبه على كفّه .

ورقة هويّة وإبداع :

إبراهيم درغوثي رجل مسكون بهاجس الكتابة الجديدة ، يريد حين يكتب أن لا يكرّر تجارب الذين سبقوه . لا يؤمن بـ : " هل غادر الشعراء من متردّم " لأنّه يبحث دائما عن الجديد في معنى القصّة ومبناها . يدخل تخوم الإبداع الأدبي من الباب الكبير ولا ينقر على الشبابيك أبدا يحب الأطفال لا لأنّ مهنة التدريس حتّمت عليه ذلك وإنّما لأنه يرى فيهم الزرع الذي سيثمر بعد حين .

ولد في قرية المحاسن من بلاد الجريد ، هذه القرية التي يفوح من أزقتها العتيقة شذى الأساطير والحكايات العجيبة هي التي جعلته يكتب أجمل قصص مجموعته الأولى .

مولوده كان " النخل يموت واقفا " قصص ـ 1989 عن دار حامد ، وبعد عام ألحقه بمجموعة قصصيّة أخرى " الخبز المرّ " عن نفس الدار . ثمّ دخل إبراهيم درغوثي عالم الرواية وأصدر روايتين :

1 ـ " الدراويش يعودون إلى المنفى " ـ 1992 ـ عن دار رياض الريس ـ لندن ..

2 ـ " القيامة ... الآن " عن دار الحوار اللاذقيّة / سوريا .

وأخيرا ظهرت له في سوق الكتب التونسيّة مجموعة قصصية بعنوان : " رجل محترم جداً " ـ 1995 ـ عن دار سحر .

والمجموعة في حجم متوسط ـ 86 صفحة ـ تحوي في تخومها 5 قصص فيما يلي كشفها :

1 ـ رجل محترم جداً .

2 ـ الكلب .

3 ـ 3 قصص قصيرة جداً : ـ رماد جهنّم ، لن تقرع الأجراس ، أعشاش الحمام البرّي .

4 ـ الحداة والصيّاد .

5 ـ الجريمة والعقاب .

ظلال الوجه :

وتنسكب علينا ظلال وجه الكتاب كالصفعات المباغتة لتوقظنا من سهوم غرقنا فيه ونحن إليه . وتبحثون معي ونحن في شبه دهشة ما زالت تربكنا عن بذلة أنيقة وربطة عنق وقميص حريريّ وحذاء أسود أو برونزيّ لمّاع ، وذاك العطر ... ذاك العطر الذي يهبّ مع النسمات من مثل هؤلاء ... ونستفيق من حلم كلاسيكي على هامات تدور في فلك مظلم ... رجال بلا ملامح ، ملفوفين في أردية تكثّفهم كأنّها جلابيب نساء ، يتخبطون فيها فلا يفرقون بين فتحة الرأس والكمّ . فيتكؤمون على بعض في مربّع ... إنّه الفرقة أو القفص .. بل هو العصر الذي يطبق بجدرانه عليهم . يحاصرهم ويحاصرونه فيسقطون في العسر ونسقط نحن في فخّ الأسئلة . فإذا ابراهيم درغوثي يمسكنا من أيدينا ويقول على لسان " النفزي " : كلّما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة "

ويغيب لينتبذ ركنا تحت نخلة بدأت تيسر وينام بعين واحدة .

سؤال العمق :

وكان لابد لي من جواب على سؤال أرهقني :

ـ أي رجل محترم جداً يسوقنا إليه ابراهيم درغوثي وقد جاء كلّ الأثر على لسان المتكلّم ... وقد قدّم لنا هذا الرجل المحترم نفسه بأشكال مختلفة ، وبصفات متباينة ، وفي وضعيات متناقضة .

نجده يقول عن نفسه في القصّة التي تحمل عنوان الأثر " رجل محترم جداً "

" أنا الآن رجل محترم جداً .

رجل محترم جداً .

ألبس ربطات العنق الحريريّة . والبذلات الباريسيّة ، وأتعطّر كالملوس .

وأجلس وراء السائق الذي ينزل دائما قبلي ليفتح لي الباب ويحمل عني الحقيبة .

أمام الإدارة تستقبلني الابتسامات الكاذبة .

ويقف عند مروري العمّال والموظّفون .

ويبوس رؤساء الأقسام أرجلي .

ويمشي السماة كالخجل أمامي وخلفي

يحملون لي القهوة والشاي .

ويوشوشون في أذني كلاما كثيرا ... "

وقد كان قبل عشرين سنة من الآن طالبا يتظاهر ويندّد . لكنّه ينتمي بالأزقّة الخلفية حين يداهم البوليس الجميع . ذات هروب فتح له باب في واحد من أشهر الأزقة الخلفية لمدينة تونس العاصمة وتلقفته للا صالحة فاستبدل الأعلام الحمراء بالدفّ والنهد وأبطل السياسة وهام بذات الخال . وحين اعتدل أصلح من شأن سيره المغلوط .. السير ضدّ التيّار انتحار وولج السياسة

من بابها الآخر حتى صار رجلا محترما جداً .

هذا هو الجوّ الذي لفّ حوله ذاك النسيج الرهيب من القول الذي يختزل أزمنة متعدّدة في بعض شخوص قد يبدو إيرادها على سبيل الذكر ، لكنّه في الحقيقة ذكر يحمل دلالات كثيرة .

والقصّة في حدّ ذاتها قد تبدو بعد القراءة الأولى قصّة ماجنة لكن إن اجتهدنا وغصنا في الجرح المكشوف لتبيّنا عللا عميقة وأنصالا تختبئ تحت الجلد . وما فعل إبراهيم درغوثي سوى أنّه كشف الجرح في عرض المسافر ... ولن نناقش هذه الدلالات والإيحاءات والنوايا لأنّ جلد النوايا كالقبض على الريح . فقط دعنا نسأله قبل أن يمضي ونمضي :

ـ إبراهيم درغوثي أرى أنّك في أحيان كثيرة تُعري لغتك إلى درجة الفاحشة ، أخدمة للنصّ أم خدمة لبعض القرّاء الذين أصبحوا يقرؤون بعيونهم؟

بدأ جوابه مراوغا . أحالني إلى نص جميل " تلك الرائحة " وكاتب قال أنّه يحبّه كثيرا " صنع الله إبراهيم " قرأ لي من مقدّمة تلك الرواية القصيرة هذه الجمل : " لماذا يتعيّن علينا عندما نكتب ألاّ نتحدّث إلاّ عن جمال الزهور وروعة عبقها بينما الوساخة تملأ الشوارع ومياه الصرف الملوّثة تغطي الأرض والجميع يشمون الرائحة النتنة ويتشكون منها . لماذا حين نرسم نصوّر على الورق كائنات أو شكت أن تختفي فتحاتها التناسليّة كي لا نخدش حياء كاذبا لدى قرّاء يعرفون عن أمور الجنس أكثر مما يعرف الكاتب .

قلت : ـ وأنت ماذا تقول ؟

قال : ـ حين أعرّي اللغة وأنزع عنها ورق التوت فإني أعرّي من ورائها النفس البشرية لأدخل في تفاصيلها الصغيرة . تلك التفاصيل التي نريد أن نغطيها عن الآخر حتى لا يفضحنا ، ونقوم بها خفية وراء الأبواب الموصدة أو حين يعمّ الظلام . أبدا ، وأنا أكتب لم أفكر في إرضاء القارئ لأنّني لا أحكي عن الجنس الرخيص ، جنس الغرائز والدموع وإنّما أريد أن أجعل من قصصي دروسا في التربية الجنسيّة وأن أهمس في أذن القارئ : " لا تخجل يا صاحبي فالجنس ضروري للحياة كالماء والهواء " .

زد على هذا ، ماذا تركت لنا الأقمار الصناعيّة التي صارت تدخل ببرامجها منازلنا بدون استئذان ؟ ما هو القول الذي تركته برامج وأفلام هذه الأقمار للكاتب المسكين .. إن القارئ لن يظفر منه بعد الآن بالشيء الكثير !

ويواصل الرجل المحترم جداً سيره في صورة أخرى . قد يكون الزمان واحد لكنّ الإطار يختلف إنّه الغريب الكادح هذه المرّة جاء تاركا وراء بابه " حوريّة " الدار والوطن بعد أن إستأمن عليها الغريب " كلب أسود "

" وجدته ذات يوم في البريّة ، وجدته جروا أعمى ، تركته قافلة في طريقها وارتحلت نحو الشمال .

قافلةْ تسيرْ

في بلادْ الخيرْ

سيري أيّتها القوافل

ولا تترقبي

قوافل الجمال
وقوافل سيارات "الاندروفر"
برجالك البيض السمان الملثمين بغطاء الرأس العربي
ولا يتوقفي أيتها القوافل
وأتركي لنا في طريقك ما شئت :
بعر الجمال .
والعوازل الجنسيّة
وحبوب منع الحمل
ومرض الإيدز
والكلاب السود"

وخان الكلب العهد وهتك الستر فما كان من رجلنا إلاّ أن سايره في النباح .

ـ إبراهيم درغوثي هل ترى الخلل في أهل الدار ؟ أم في الكلب الأسود ؟
أم في الرجل ... الضحيّة ؟ أم هي لعبة مغلوطة أصلا لأنّها لعبة قطّ وفار ؟

ـ لا خلل هناك . فكل واحد قام بدوره .. أهل الدار رأوا أنّ الكلب أحفظ للودّ من بني البشر فطبّقوا القاعدة . والكلب حيوان وإن استأنس (فمن يلوم كلبا) ؟ والرجل ـ بطل القصّة ـ ضحيّة منذ أن غادر وطنه . والزوجة الخائنة ـ ضحيّة وجلاد ـ في نفس الآن . هي خائنة في نظر الزوج وضحيّة في نظر نفسها ، هي خائنة وإن كان الفعل مع كلب ولكنّها ضحيّة لأنها اختارت أهون الشرين .

وأظنّ أن الزوج فهم القصّة في النهاية فأنهاها نباحا متواصلا هو احتجاج على الدّنيا وما فيها ...

ويتركنا الرّجل المحترم جداً نكبت رغبة جامحة في النباح ربّما مساندة لحوريّة وربّما للكلب الأسود عزيمه ويهزّه ذاكرتنا الجماعيّة بعد أن تسلل لنا من شبّاك الماضي من خلال مخزون أمّه والأشياء الصغيرة للذكريات التي أثثت عمرا كاملا في تاريخ حافل بالنكبات أطلّ علينا من هذا الشبّاك في شبه خجل يصدح بموقفه من هذا المخزون :

" رأيتها تبتسم في القبر .
قلت لها : لن أبيع صندوقك الخشبيّ المزركش بأطياف قوس قزح ! "

ويواصل الرجل المحترم جداً في حمّى وفائه وأنفته العربيّة فيحافظ على البيت أيضا . بيت أمّه .. لكنّه وبمروء ة عربية تركه للحمام البرّي يبني فيه أعشاشا .

في الأخير وفي نهاية السفر يقود إبراهيم درغوثي الرجل المحترم جداً إلى محكمة هو فيها القاضي والضحيّة والشهود :

" قررت الإستيلاء على هذا القصر عندما سنحت لي الفرصة
فقتلت العجوزين
وسكنت القصر "

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

"ضربة واحدة بالمطرقة على مؤخرة الرأس ويسقط الجسد بين يدي بدون ألم ولا أنين ولادم يسيل على الأرض . فقط تخرج من الأنف فأمسحها بكفي وينتهي الأمر"

فكذا يختصر الجناية ويمسرحها بطريقة أقرب إلى الكوميديا منها إلى التراجيديا ...

والسؤال المطروح : ـ أحقيقة رجلنا هذا الجاني ؟

ـ أم أنّ الحلم هو المغرّق ؟ .. الرقص على الممنوعات ولزوم مالا يلزم لتكون النتيجة السجن حيث يُكشف الشق الآخر لوجه الحياة يتجسّم فيه فعل زعماء القبائل المتحضرة حديثا ، تجارة العبيد وتصنيع أشباه النساء .

ـ لكن هل أنّ لكل جريمة عقابا ؟ بل هل أن كل جريمة ظاهرة ؟

ـ إبراهيم درغوثي .. ألا ترى معي أنّ الكتابة بلا صدق جريمة ؟

قال : ـ الذي يكتب بلا صدق كسارق النجوم . يكدّسها في الليل .. في صناديق بحكم إغلاقها . لكنّه في الصباح يجد كل صناديقه فارغة ونجوم الليل طارت إلى السماء البعيدة .

أدوات الكتابة .. تقنيات الإبداع

إن حركة القصّ عند إبراهيم درغوثي حركة دائرية تتداخل فيها تفاصيل القصّ إلى درجة تربك القارئ . تكاد تختلط فيها لحظة الضحك بالبكاء والحياة بالموت والسذاجة بالدهاء والرقص بالقصف .. كلّ المتضادات في علاقة تجانس رهيب ، رغم التقطيع الذي يعتمده الأديب في طريقة بسط نصّه على الورق والتي تخلّ أحيانا بمتابعة الفكرة حين يصل التقطيع إلى تحليل الفقرة القصيرة إلى جمل أكثر قصرا والجمل إلى أسماء وأفعال لازمة فإنّ تفاصيل النصّ تصبح في تلاحم حميم وتلاحق سريع تكاد فيه البدايات لا تنتهي ولا تهدأ إلى نهايات أبدا حتى أني في أحيان كثيرة تمنيت لو أنّ مداد القصّ لا يتوقّف ليقول أكثر .. ليوضح أكثر ، لكن الصفحة تجافرني بالبياض فأعود للدوران مع الدائرة ذاتها كأنّ بي خدرا وقد إنتفخ رأسي من صدمات كثيرة وازدحمت ذاكرتي بأسماء علم وأعلام ، بأحداث وأحاديث هو قفز على الأزمنة وتوضيف شخوصها وعلاماتها الاختزال سرد كثير يتراوح بين ماض وحاضر ثقافي وسياسي واجتماعي في صور تعبيريّة خاطفة كالصدمة بلغة سلسة تؤثثها أبجديّة بتركيبة مغربية لكنّها حارقة تأخذ كثيرا من لغة وإحساس العامة . يُزكي كلّ هذا مخزون شخصي لإبراهيم درغوثي هو خلاصة قراءات كثيرة ومتنوّعة ومواكبة جديّة لكل جديد ومعاصر على جميع المستويات الحياتيّة . كلّ هذا يبرهن لنا على تمكنه من أدوات الكتابة وتمرّسه على تقنيات الإبداع الحديث وحرصه على أن يكون متميزا وسط دائرة تحترق لتفتح شبابيك تطل على الشمس .

ـ صديقنا قبل جمع أدوات الشاي وإغلاق باب الصالون على موعد لاحق ماذا تقول عن الرجل المحترم جداً الذي بعثرنا في كلّ الاتجاهات ؟

ـ كلّ واحد منّا رجل كان أو امرأة يولد وفي داخله " رجل محترم جداً " في أغلب الحالات يكون غائصا في أعماق ظلمات النفس البشريّة لكن . وكما جبل الثلج العائم في البحر ـ لا يظهر منه إلاّ جزءا يسيرا ولكنّه على كلّ حال موجود .

فمن ينكره ؟ .. من ينكر وجوده ؟؟

فنون تشكيلية :

الرسام بشير الدزيري
واقعية الحنين والتعلق بالطفولة الأولى

بقلم : منير بن يونس

قبل البدء :

النبش في دفاتر الطفولة الأولى .. والحنين إلى واقعية الأيام البسيطة .. هاجس يخامر الفنان المحب للإقتراب من هموم ومشاغل العامة .. لغة للتّفور من اليوم والغد ...

واقعية الحنين هذه التي إختارها الرسام بشير الدزيري في معرضه الأخير بدار السينما والمسرح ابن رشيق والذي أقامه تحت عنوان " بين الواقعية والتجريد " متظمنا 23 لوحة تعكس للملتقى مدى تعلق بشير بما حوله من مشاهد كيف لا ، ومدينتها استنزفت ابداعات العديد من الفنّانين داخل البلاد وخارجها ـ المدينة العتيقة ـ شوارع ترعرع الدزيري بين أحضانها وعانق معاناة بسطائها وقد يبرز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



هذا جليا في اللوحات (1 ـ 10 ـ 12 ـ 14) كبير الحومة ، سيدي ماضي ،

تجاور الجامع والحمّام ، قيلولة ، إلخ ...

* **ذاكرة متميزة** ....

المتأمل في واقعية الرسام بشير الدزيري يلاحظ جليًا مدى امتلاك هذا الرسام لآليات الإختيار الدقيق .. في نقل المشاهد فأنت أمام لوحاته تشعر كأنك أمام مشاهد مألوفة عندك، إنك تكاد تجسم إما بذاكرة متميزة عند الدزيري أو تلك اللوحات أخذت بآلة تصوير وأعاد نقلها باليد ...

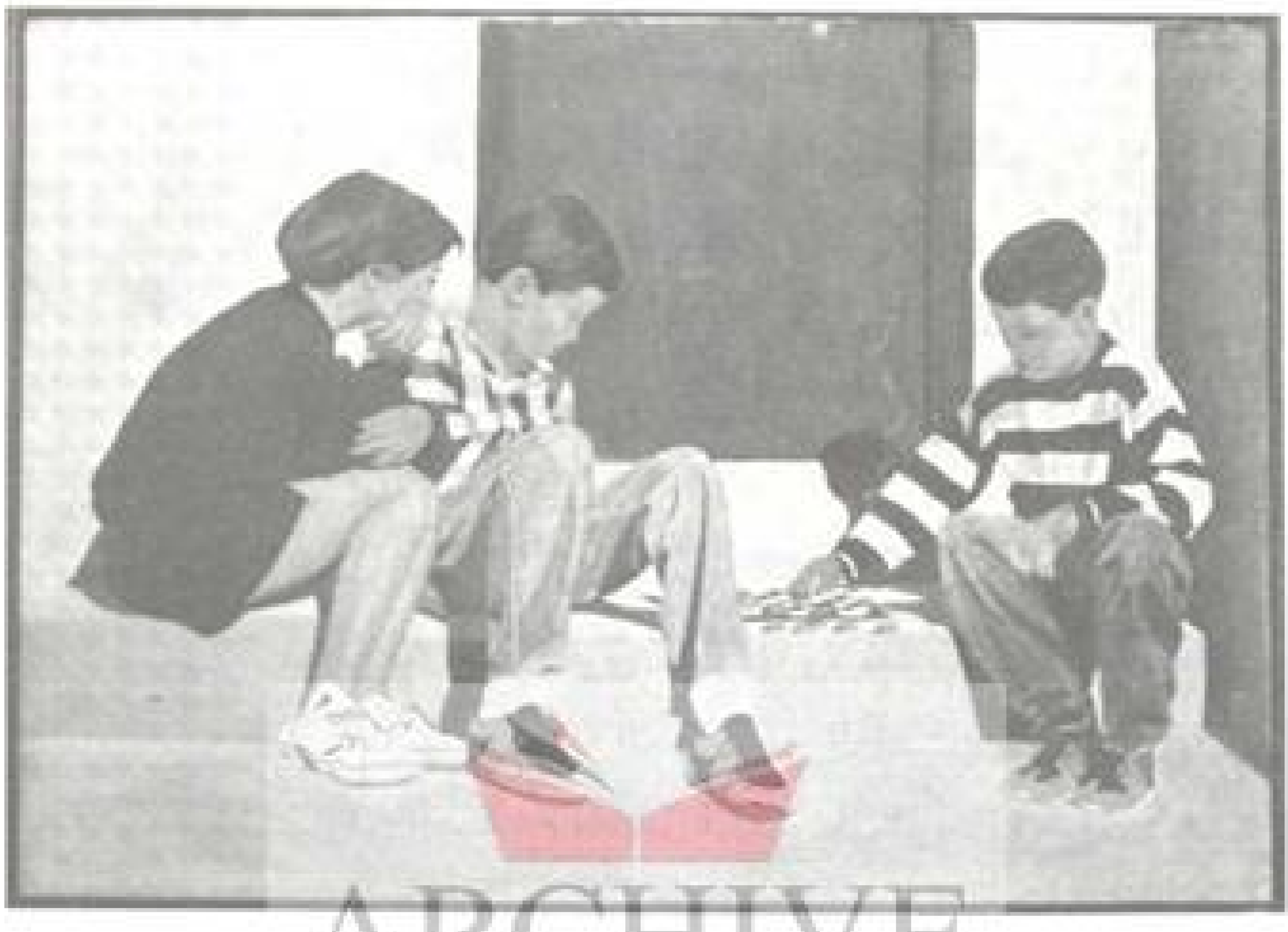


اهتمام بشير بأهمية المرحلة التي يمر بها المجتمع التونسي والإختلاف بين الأجيال إلى جانب اهتمامه بالطبقة الكادحة ... كان جليًا (15 ـ 18 ـ 21 ـ 22) مواساة ، المنزع في الهجير ، نكون أو لا نكون ، الأمل ...

* **التجريدية :**

العلاقة المدينة بين اللون والمساحة .. شكلت نقطة التميز لدى الرسام بشير الدزيري في لوحاته التجريدية بصفة خاصة، فأنت أمام أشكال توحي لك بعديد المعاني والأحاسيس المتوهجة .. توهج الألوان المستعملة فيها ... فكان في تفاعل الألوان والمساحة لغة أخرى مفاتيحها مساحات الضوء والعتمة ... باختصار شديد بشير الدزيري في هذا المعرض قدّم لنا بداية تجربة ابداعية جديدة في حياته الفنية

.. تجعلنا ننتظر أعماله القادمة .. إنتظارنا لجديد كل مبدع تونسي يسعى لتحقيق ذاته منطلقا من مخزوننا الإبداعي والحضاري والثقافي التونسي



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* **تعريف :**

بشير الدزيري رسام عصامي من مواليد 1954 بتونس قدم معرضه الأول بفضاء التياترو بالمشتل سنة 1995 ومعرضه الثاني بدار السينما والمسرح ابن رشيق 1996 ـ منذ طفولته كان شغوفا بالخط العربي مع حب كبير للرسم.



سنة 1976 كانت بداية الإحتراف في عالم الخط وسنة 1991 نجح كمترشح حر في امتحان الباكالوريا الفرنسية ... لكنه لم يتحصل على المعادلة للدخول إلى مدرسة الفنون الجميلة فقرّر أن يدرس الفن بمفرده تدفعه الموهبة وعشقه المجنون للريشة وللألوان ...

أمطار لا تهمّ الآلهة !

بقلم : عبد الفتاح بن حمودة

... أجيبُهَا طفلاً لأمْنَحَهَا مدلولاتٍ أليفةً .

أمرُّ بِهَا فَأَرَاهَا حَارِقَةً وأنَا في شُمُوسِ العَالَمِ .

السَّمواء كيانٌ مُمتدٌّ في الفَجْرِ وكتابٌ مهمـــومٌ، كـيانٌ تَقُولـه الحَيَاةُ وهْيَ تَنْهمِكُ في كُلِّ شَيْءٍ . السُّمْرَاءُ إمْكَانٌ مُخْتلفٌ لِلْمَوْتِ ورَتْقٌ للأحْلامِ وذَهَابٌ فَرِيدٌ إلَى الأصْقَاعِ . إمْكَانٌ مُمَزَّقٌ في أوَّلِه وآخِرِه .

السُّمْرَاءُ لاَ بَحْرٌ ولا صَحْرَاءُ . تَحْيَا مَكْلُومَةَ الرُّؤَى كُلَّ صَبَاحٍ . تَمَامًا مِثْلَ بِلادٍ أُخْرَى . نَعْرِفُهَا ولا نَمْلِكُ اسْمَهَا . نَمْلِكُ الوُقُوعَ في عُيُونِهَا الوَاسِعَةِ الجَمِيلَةِ وفي الرُّقْصَاتِ عَلَى وجْهِهَا !

.. وفي الصَّبَاحِ الطَّوِيلِ المُلْقَى عَلَى الرَّصِيفِ مَلَكَتْ حَيَاتُهَا القَلَقَةُ بِتَكَفُّهَا الخَالِقِ وبِإطْبَاقِ شِفَاهِهَا المَالِحَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ !

وفي الصَّبَاحِ هِيَ الرَّائِعَةُ التي تَعْوِي مِنَ الوَهْمِ لِتُفْرِقَ الأرْضَ بِالأمْطَارِ ! وهْيَ الشَّمْسُ الكَلِمَةُ بِالنُّقْصَانِ ! وبِكَشْفِ العَرَاءَاتِ التي تُطْلِقُ أسْئِلَةَ النُّورِ في الأوْحَالِ !

السُّمْرَاءُ حَرَكَةُ الأرْضِ الشَّيِّقَةُ وعَمَلُ البَدْءِ واخْتِلافُ الأشْوَاقِ بِانْقِسَامِهَا إلَى أكْثَرَ مِنْ ذَرَّةٍ !

السُّمْرَاءُ في حيَّة وفي الأشْعَارِ الزَّرْقَاءِ وفي المِيَاهِ . رِيحُهَا الحُبُّ وغَوْرُهَا طِفْلُ البَعِيدِ .

السُّمْرَاءُ مَسْؤُولَةٌ عَنِ الإله بِطَرَائِقِ إقَامَتِهَا في الأرْضِ وإحْدَاثِهَا رَوَاجًا شَدِيدًا لِلرُّؤَى .

تَشَوُّقُهَا بِكْرٌ ولُغَاتُهَا سِرِّيَّةٌ لا تُبَالِي بِمَا يُسَمَّى الأشْجَارُ حِينَ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يُرَى العَالَمُ أشْبَاحًا لاَ يَقِينَ لَهَا . السُّمْرَاءُ نَبْعٌ . تَنْقُلُ الأسْرَارِيُّ إِلَى مَجَالِ النَّدَى !

السُّمْرَاءُ عُوَاءٌ يَمْشِي ، تَحْتَبِا الأَسْمَاءُ ، الأَفْعَالُ ، الحُرُوف والأَشْوَاقِ لَمْ تَكُنْ ضَالَّةً عِنْدَمَا رَأَتْ فِي ذَاتِهَا فَزَّاعَةً لِلطُّيُورِ فَتَقَدَّمَتْ عَلَى اللُّغَاتِ وأَكَلَتْ مَا فِيالنَّهَارِ !

الغُصْنُ الذَّهَبِيُّ هِيَ والوَحْلُ الرَّائِعُ يَتَلاَلأُ فِي الدُّجَى ! حَتَّى خَوْفُهَا عَلَى الطِّفْلِ فِيهَا تَأَتَّى مِنْ شُعُورِهَا الحَادِّ بِمَوْتِ الزَّيْتُونِ وبِعَجْزِهَا عَنْ أَخْذِ النَّارِ مِنْ نُتَفِ الثَّلْجِ !

السُّمْرَاءُ غَرِيزَةٌ ، أَحْلاَمٌ صَغِيرَةٌ ، أَصْلٌ وهَامِشٌ ، عِنْدَمَا تَعْرُجُ عَلَى النُّجُومِ تُضَاءُ . وهِيَ سِرُّ الإِنَاءِ القَدِيمِ المُرْتَجِفُ فِي الصَّبَاحَاتِ .. رَغَبَاتُهَا هَشَاشَةُ اللَّوْزِ وتَأْبِيدُ الحُبِّ !

أَرْضُهَا الأَصْنَامُ المَكْسُورَةُ تَؤُولُ إِلَى أَجْسَادٍ مَائِيَّةٍ ونَارِيَّةٍ تَوَحُّشُ فِي البُرُوقِ الوَاضِحَةِ جِدًّا فِي البَحْرِ . بِلاَغَاتُ رُوحِهَا السُّمْرَاءُ أَصْلُ الشِّعْرِ وأَصْلُ الجَحِيمِ الَّذِي قِيلَ رَغَبَاتُهَا أَصْلُ الحُزْنِ وأَصْلُ تَخْلِيصِ الشِّعْرِ مِنْ مَائِرِه !

السُّمْرَاءُ إِيقَاعَاتٌ تَتَصَلَّعُ بَلْ إِنَّ شَيْئًا مِنْ مَاءِ الكِتَابَةِ يَدُقُّ فِي حُجْرَتِهَا !

.. هِيَ الجَمِيلَةُ الَّتِي فَجَّرَتِ النَّهْرَ ونَثَرَتْ شَمْسَ فِتْنَتِه فِي الطَّرِيقِ ! هِيَ بَسَاطَةُ السُّمْرَاءُ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الأَعَالِي ثُمَّ تَتَسَاقَطُ قُبُلاَتٍ أَوْ ضَحِكَاتٍ أَوْ رَقَصَاتٍ عَلَى الأَشْجَارِ !!

تونس جانفي ‹‹

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذّكرى تشيخ .... أيضا

نمر ، عباس ريسان
ـ العراق ـ

تشرئب جراحي
كأوهامي المتخبطة بالحزن
كالأمل المنحوت بعينيك
وأسائل نفسي ..
عن ذاك الليل المتراقص حول الشبّاك
عن زقزقة العصفور فوق جبيني اليابس
عن ذاك الصبح المتنائي
بين أزقة عينيك
هكذا سيدتي
ـ مثل كلّ الناس ـ
أحمل فانوسي
وأتعثّـــر
ذابلة كلّ خطاي
مشدوهة طرقي
لا تدري إلى أين تسير
يا هذا قد جفّ الضوء المتدلّي
من بيت الجارة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يا هذا قد عشعش

ـ كالألـــم ـ

هذا الليل المتغلغل

فوق أهداب عيوني

وعلى أعتابي تشيخ الذكرى

ويتكسر هذا الحلم كظلّ فوق الماء

وما بين الكأس وصوتك

أهذي كالمخمور

وما بين جدران الليل الموحشة

تتخبط شمسي

كطفل يبحث عن مثواه

عبثا ـ ينتشلني الدرب ـ وأسير

نحو الوهم ... فأراك

ها أنت تضيع كمسمار ما بين الأنقاض

ها أنت وحدك ...

قد ولّى أصحابك

عنك

العـراق ـ الناصـريه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنشـــودة لرجـل عظيـم

شعر : مختار الوهني

[*إلى والدي إضمامة شوق ومحبتي وتقدير]

أراه فـي الحقـــول
فـأسـه النشـيط شـارة افتـخار
وصوتـه الغلـيظ ينشـد المـوّال :
« يا ضيعـتي الحبيبـة
يـا حلمـي الجمـيل
يـا جنّتـي القـريبـة
دنـياي أنـت يـا حبيبتـي
وخـاتمـي « وتـربـة الـوطـن »

* * *

أراه فـي انحنـاء ة السـحـاب
يـعـانـق التـــراب
ويقـــلع الأعـــشـاب
أراه فـــي انحنـاءة النهـار
يعـانـق الأشجـار
ويجـمع البـقـول والثـمار
أراه فـــي انحـــناءة المـــساء

يغنـــي فـــي انتـــشاء
« يـــا حقلـــي الخـصيب
تـــرابـــك الحـبيب والشجـــر
يمـسحـــان عـــن جفـونـــي التـــعب
ويـــزرعـــان فـــي فـــؤادي المـــنى
ويفتـــلان مـــن دمـــي الشهـــب . »

* * *

أراه فـــي انحنـــاء ة الحـــيـــاة
يحـلم أن يـــزور مكـــةَ
ويـــرتـــوي مـــن زمـــزم
يجـــي ء فـــي المسـاء متعـبا
يعـــود صامتا ومـــرهقـــا
يكـــلّم الفـــــراغ
يـــراوغ الـــدموع بعـد هبـّة السؤال عن حنينه للحـجّ
ويفـــــرد الـــيدين شـــاطئـــين
ويـــرسـم انـــفراجة علـى الـــتراب
و ينـــزع الغـــطاء عـــن مدائـــن الوجـــع
ويرقـــب انبـــلاجـــة لـــنجمة المسافة المعـــاندة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خـذ عنّي همـومـي

شعر : عبد المجيد البراهمي

تستفـزني الـدنيـا
تبعـثر مـن حـولي الكـائـن والمكـان
تـدفع بـي إلـى كـل الإتجـاهات
مـن حـزن أنطـلق
وإلـى حـزن أعـود
مـن عـاصفـة أمـضي
وإلـى عـاصفـة أفـضي
ثـمّ أنـسى وأنسى وكـأن لا شيء كـان يشغلني قبيل تلك اللحظة
أخـرج إلـى الفـرجـة أو إلـى أمـر غير ذي بـال
فتـطفـح نفسـي بـالشـهـوات
عـزانـي أن أنسـى نفـسي
أعـود ثـم أنـذر أن لا أعـود
أنسحب وأنسى الحب والصحبة
وعطشي يـذوب وما أتـوب
تغتـصبني الأيـام
تهـرق دمـي ودمـوعـي
دلائـل إثبـات
ربـاه !
مـا أصنـع بـي وأنـا الضحيـة
أكـاد أقطـع أوصالـي
أمـزّق كـبـدي
تعـبت مـن المقـاومـة
أذلـتـني المسـاومـة
فـجـر كـل صبـاح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حـــين يـــؤذن المـــؤذن حـــي عـلى الفـــلاح
أقـــف مبتهـــلا إلـــى اللـــه
أســـأله الـدخـول إلـى يومـي آمـنا
وفـــي مســـاء يـــومـــي
أجـــدنـــي مطـــوقا بعـــادات المـــساء
تـــانـــه أنـــا ،
حـــالـم أنـــا ،
مـــرهـق أنـــا ،
تـــدوسني أقـدام المـدينـة
تـلـفظـني المقـاهـي
فـاقـد للطمـأنينـة
أجـــوب الـشـوارع
أبحـــث عـن ضحـية
أشكـو إليـها بؤسـي
علّهـا تـأخـذ عنـي همـومـي
جميـلة أنـت يا « فـاقـة » الـدرة
فيـــك سننـــت عـــاداتـــي
ليتني أمـوت وأحيـا فـأموت ثـمّ أحيا فيك ألف مرة
مثقـل الخطـوات أمشـي تـارة
وطـــورا أقـــف لأسترجـع أنـفاسـي
تتـــبعث منّـــي أنـــاتـــي
أتـــذكـــرُ المـــوت
ما أعددت لها شيئا حتى الآن
أنـــا فـــي منتـهى الإفـــلاس
ســـوف ألقاها ككل النـــاس
هـــناك حـــيث يـــرقد أجـــدادي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في مقبرة تمدّ ذراعيها نحو الوادي
تحكي قصّة الإنسان والتّراب
وكيف أن الدهر مفرق الأحباب
يا موت !
إلى حين تنفّذي حكمك عليّ
إصطلي على جسمي المنهوك بالدّاءات
لكن تمهّلي لا تأخذي مني حياتي
وقلمي ،
ودفاتري ،
وألمي ،
والهزع الأخير من اللّيل
وموعدي مع الشمس عند الأصيل
أنا وخليلي
فما نشرت بعد قلاعي
لأعبر علاّتي إليك
دعيني أدرك مجدي الأثيل
أو تظنين أني ظل لأشباه الرجال
أو لا شيء غيري في كل الأحوال
سأمضي لموعدي مع القلق
ومع السباحة فيه حتى الغرق
بقريحتي ،
وأفكاري ،
وأرقي ،
يا شعر!
يا خليلي
لا تقف في ذهول

فـقد هـدأت الـعواصف التي عـانقت صـدري
وانفتحـت طريـق لنـا فـي البحـر
أحـزم أمتـعك إذا
فقـد قطّعـت حبـال المستـحيل
وهمـت سفينتـي بالـرّحيـل
وتجنّـحت رئتـا قـلاعـي
فـأقـلامي مـجانيـف
وعقـلي دليلـي
تعشـقيني أو تعشـقي بلـدي فالأمـر سـواء
مادام حبّـنا علـى العـرش استـوى
وانتـشـت روحـي
فـإذا أنـا إنـسان
لا يسـع حبّـه لـك لا الـزّمـان ولا المكـان
أنـا يا حبيبـتي لم أعـد أخشـى مـن نفسـي عليك
فكـل أنـواع الحـب الـذي مـارسته
أو الـذي دار بخـلدي
خـراجـه إليـك
يـا حبيـبتي ! يا ملهـمتـي !
بتّ أقرأ الشعر في المحافل
ما إن سكـن حبـك جـوى قلبـي
جـئت بـك راحـل
استكمـلت مـراحـل عنـائـي
فتـلاقينـا بالسـاحـل
أحبيـني بكـلّ مـا تـقدريـن
فبذات القدر أنا قابل
أحبيني على الدوام

دون قيد أو فواصل
لأجلك أجدّت الخطاب
وكتبت الزجائل
بك صنعت القرار
وحللت المسائل
وأقسمت بثورة العشق
عن عشقي لك لا ولن أتنازل
سلي نظم القوافي
سلي العرب
نووا المكارم والشمائل
ما الذي أفنى مجنون ليلى
ما الذي حرم امرئ القيس
من ملك طائل
ما الذي أسكر أبا نؤاس
فإذا هو بالشعر والخمر تغازل
من تملكه الوجد بك مثلي
عيب أن يمله العواذل
ألفت الشعر وصار الشعر إلفي
كما ألفت الحرم البلابل
وبه فاضت مشاعري واهتدت
وما ظلت تقلبها الزلازل
ما خطب قومي لا يتدبرون الشعر
ترى من سوى الشاعر عاقل
كم وكم وردت في الشعر من عبرة
لك فاعلم يا من أنت جاهل
ما أروع قلق الشعر إليه هجرت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالشعر خير ما هجر إليه الأوائل
الشعر سلطان تربّع على عرش الكلام
وبح قومي كُفّوا عن القلاقل
واحسرتا لزمان مضى
إذ يسكت الجمع
إذا تكلم الشاعر
ذروا نفسي تنل منكم ودّها
وخلدوا زمانكم هذا والمآثر
ما أنا رقيب عليكم ولكن
" تغلغلت في فكري الخواطر " (2)
نظر البغاة إليّ وقالوا
أغبي هذا أم شاطر ؟
قلت : أنا كمثل صيد تلاشى في البرية
حمل جرحه وأوغل في الغابة
الألم صائده والقدر بندقية
آه من المتاهات وعذاب المسافات
تلك التي انفتحت على صدري
مثل أمواج تهزها رياح عتية
وأنا كطائر النورس
برغم العواصف
ظلّ يرفرف بجناحيه
يتهادى مع الموج
يتمايل مع الريح
لو حطّ على اليابسة
لطالته يد البشر
فأنّى له أن يهدأ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأنّى له أن يستريح
ما أشبهني به لو لم أكن
مكسور الجناحين
والقلب جريح
قدّسي أحبك أبدا
ليس كمثلك في الوجود
يا تونس الخضراء
عروس الكون
نفح الورود
أحبك فوق الخيال
أحبك فوق الحدود
فيك ألذّ ما في الدنيا
صنع الخالق المعبود ،
وأسفاه !
ثمة من يريدني أن أتعرّى من حيائي
لساني لمسح أحذية السيد
أصبّ من عرقي بسخاء
أحذر أن تتفلت مني إرادتي
وأن آخذ ما تبقى من العزاء
إلاّ أن أتدلج
فوق الخمر والأفيون ...
وصوت ينبعث منّي محذرا
إياك أن تحكي بضمير
وأحلم ، كيف تبقي صغير
" وإذا لم يكن ما تريد
فأرد ما كان " (3)

أهذا منتهى العقلانية عند الإنسان !
تعب ألقيت بأحزاني في رحم التفاؤل
فأينعت زهرة
أخالها الشعر
أريجها الهوية
طبيعي أن تحضى بمحبتي يا وطني
ولكن ليس من الطبيعي أن أحزنك
أو أخطو بك إلى الوراء
أديم لك حبي حتى لو أحاط بي أعداؤك
وقسروا على أمري
من أكون إذن ؟
إن لم أكن شيئا من آثارك الجميلة
شاعر يتغنّى بجمالك
أو عصفور تظلّله غابة خميلة
فدن جنحت أفكاري
فلن أكون مع اليمين
ولا مع اليسار
وإنما أهيم في حبك العذري
نشوان بأحلامي
كالرّبيع بالزّهر
فلا حقد أو تطرف
أو رمي بماء النار
ولا سارق بالليل
أو لصّ بالنهارْ
سكن الوجد فؤادي
فلم ألف الكرى والأحقاد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإذا القلب هام في السماء
والنفس تنعم بما لا أدري
وككل إنسان عادي
أحتاج إلى أشياء كثيرة
إلى رؤية عمل غير مألوف
أرى فيه الإبداع
وضرورة النَّقد ،
أحتاج إلى أن أعيش حياتي بعمق
وأدخّن سيجارتي كما لو أرى فيها إحتراقي
إذ كيف يكون الحبّ حبًا دون قبلات وعناق
حتى إذا ما تسألني حبيبتي كيف تبدو ؟
أقول لها : رضابك حلو المذاق ،
أحببت الشعر لا بل عشقته
فتسامى فكري عن الخيال
والحيطان السود والأهوال
وإذا بقيود الظلام تتكسر أمامي
كالمرايا ، كالأشياء البوار
والعمر ينقضي منّي
كسنين الغبار
ما دام هناك الموت والقبر الحزين
لابد لي أن أحب
لابد لي أن أعيش
في زمرة العاشقين
وأستلهم الفكر من الكائنات العظيمة
لتكون لحياتي قيمة .

---

1) " فالة " إسم لباجة الروماني 2) عجز لبيت المتنبّي 3) مثل عربي معاصر

رؤيـــــــة

شعر : عيد الدويخ

ـ الكويت ـ

لا تسألوه فإنه

إن ذاب في وجد يضيئ سؤالكم

ساق التذكّر غيمة

أفنت رمال ظنونكم

واستلحق الواحات

لا تسألوه فإنه

يوما سيسرج عشقه

ولكي يعود مقدسا ،

وهب الثواني عمرها الفعلي ،

والجزء المهيمن اصطفاه

وكاد أن يحياه لولا أنه

ضحّى بطهر حضوره منذ الخجل

إذ ليس ثمة لحظة من عشقه

لم تطورها الخيبات !

لا تسألوه

فإن توضأ بالتذكر وأنتوى .

هام الفؤاد برعشة صغرى

وأفنى ما تبقى من مديد الليل

في ما فات من صلواته الرعشات .

لا تسألوه عن الهوى

فقط اتركوه فلن يرى منكم سوى

طفل

ومن يهوى ... وأرض .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لعينيك أشدو

الإهداء : لتونسي الخضراء

شعر : رقية بشير

لعينيك أشدو بعدما عضّني الدّهر ... فبحرهما حضن ولونهما صدر
وفي اللجة الزرقاء أبحر أرتمي ... وبي لهفة للحلم ما ضمها سفر
وفيك يحق البوح بالعشف فافهمني ... بأنّك أنت الوحي بالشعر والسحرُ
وفي أفقك الصافي ملاذي من الأسى ... وفيك ألاقي بعض ما ضيّع الدهر
لئن ضاع حلمي حلم أمسي ففي غد ... لتونس أحلام سيشدو بها الشعرُ
أو ابتعد الأحباب مازال ملجئي ... يقيني الشّتا لما يداهمني القرّ
أنا ما عرفت الحبّ إذ كنت طفلة ... تربّيت في يتم إلى أن مضى العمر
ولكن لقيت الحبّ في عمق خافقي ... فأنت ليّ الشمس المنيرة والفجر
أخضراء لأشذاء وضوء والربى ... يغنّي الحيارى للرّوا يصدح الطير
بليل طويل كنت بين جفونك * ... أجدّف في شوق يؤازرني الصبر
فأنت التي لم تخذلي القلب ما هفا ... لك القلب أضنته عيونك الخضرُ
أودّ إنبساط في رياضك علّني ... ألاقي ارتياحا إن طعم الهوى مرّ
أود ارتماء فوق رمل كمجسد ... إذ الليل ولّى عندما يسطع الفجرُ
لأغفو وفي الأحداق وجه جميلة ... يتوجها المجد يجلّلها الكِبْرُ
أودّ احتضان الموج في كلّ سبحة ... فإن مياها مثلها عدلها العطر
أودّ رحيلا في ربوعك كلّها ... يزيل الظما عني فينشرح الصدر
أحبّك أنغام لنهر مسامر ... تشنّف سمعي مثلما يفعل الشعر
أحبّك أنسامًا بهفّ تريحني ... فألقي ارتياحي عندما يتعب الفكر
أحبك وجها للملاحة مفردا ... تغنّى به العشّاق فامتقع البدر
أحبّك لحنا ليس يبلي على المدى ... يخلده التاريخ ما بقي الدهر
أتونس هذا صوت قلبي مفازلا ... محيا التقت فيه المحاسن والطهر
فلا تلفظي حبي فحبّك قاتلي ... فإن جَناني دون حبّ خوا قَفْرُ

* من الجرازات الشعرية

ARCHIVE

أريـــج الأصـــداء

بقلم : محسن الكريفي

الأريـــج الثّـــالث : باقـــات ليلـــة الميـــلاد .....

ديباجـــة الباقـــات :

كم باقة ورد قد ذبلت
في ركن الخصلات السكرى
كم قنينة عطر سكبت
واشتعلت فوق الفساتين
كم ألف رداء ورداء
كم ألف حذاء وحذاء
وظللت على جمرك صامت
والآن سنون
وسنون أخرى
من العمر فاتت
لكنّك تبقى وستبقى
أغبى النّاس في نظري
قد مات على جمره صامت ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمّد العبّودي - الإمارات العربيّة المتحدّة

الباقة الأولى : سلام رائح غاد على ساكنة الوادي

لا أدري من أين يبدأ السّلام .. ولا من أيّ القواميس ينسلّ كلـم السّـلام ؟ ولا أيّ أبجديّات العشق أناجيك ؟ .. لست أدري أأشكر السّنين العجاف وقد لاقتنا كالصفّ يسند الصفّ ؟ .. أم قدري البائس وقد لاح يجوس مسوّطا بقايا الذرّات الناتئة ؟ .. لا أدري من أيّ زوايا الوجدان أناديك ؟ أمن روح الرّوح ؟ أم أقصى عالم العوالم القصّة ؟ .. فبقدر البعد أكون القريب وعلى طيّ المسافة تشمئز الكوابيس أن هو ذا من عفّر المحاريب ! .. من نشوة تسهادي أحيّيك ... من بساط الجسد السجّادة أناديك ... ومن إبكار للميلاد الذي يأتي ولا يأتي استدعيك ... لست أدري أيّتها البدويّة على الدّوام لم هذا اليوم دون سواه مغبار ... ولا أفقه سطور التّاريخ ... فقد قالوا إنّ حرب البسوس قد فنيت وها أنّي أتنفّس غبارها ورغاءها على مرّ أحقاب لا تلين ... حدّثيني أيتها المشبعة رحيق الرّوابي على الدّوام ... متى يحتفل بعيد الميلاد ؟ .. ومتى ترغو الإبل محمّلة بالتّمر والزّرع وقد أعياها سفر السّنين ؟ ... متى تحنّي الفجريات جدائلها بالحنّاء الليليّة

وتخرج على سجيّاتها ترفل مستقبلات الحادي وصدى نبراته يزكم الرّوح والمهج ... هذه النّوق أراها على الدرب الطّويل ... وهذه أجراس القيود تصلصل أن عاد الفرسان إلى البوادي : بوادي حلب واللاّذيقية وجيكور وتلّ الغزلان ... لم يعد ما يدنّس ثوبهم من زبد الفصول وضجيج المدن يستر من بدأوا يتعلّمون لغة الهراوات ورقصات الأصابع الوسطى تجول في الفواصل الممنوعة ... كلّ أهالي الحيّ أعلوا راياتهم السّود ليلة الميلاد ... قرعوا المهاريس وركبوا الحصان الخشبي ... وذاكروا قصائد الشؤم القديمة ... وموويل المراثي القديمة ... إلاّ إيّاك أيّتها البدويّة ... ظللت على عهدك الأوّل ترقبين القوافل وتستشرفين صدى الأريج ... كم يتعبنا أن نراك على السّهر ... وكم لا يروق لك أن تتعب لتعبك ... بالأمس كان صعاليك الحيّ يتهامسون ... إنّه العربيد طلّق المدينة ... لن يكون على مرآنا ... تكلّم العرّيف وقال : « انصبوا له الفخاخ » وتكلّم العرّيف الثاني وقال : « إنّه من سلالة المهلهل : لن يصبر على نكأ الأورام » وأردف العرّيف الثّالث : « واللاّت والعزّى وجلالة ملأ قريش : لن يجتاز الحدود سيقتله ابن طرطبّة ويذري رماده في الرّيح ... » وتكلّمت العرّيفة وأضافت : « سأرضى به أساوير وأريده عناقيد ولحما طريًا يشوى وفاكهة نضره تروي وقصة بين الملأ تروى » وقالت عرّيفة أخرى :« هو على هواي إمام وعلى صلواتي مطواع وسأخبر أبا موسى الأشعري إن تلا الأوراد أو هتف من الخلوة أو بكى » وتكلّم الأرقط وساندته الرّقطاء وولولت السّاحرة وتعوّذ الأمناء ودقّت طبول النفّار أيتها البدويّة ... هل سمعت الأصداء ؟ أعرف أنّك سمعتها من زمان ... لماذا بقيت لوحدك الوفيّة ... تزقين الفراخ وتسرحين الشّياه وتمشين مائسة في أحلك الطّين وتنسجين البرنس وتهدينه غيرك ... وتمكثين مع كسيرتك تتصنّتين إلى أريج النّوق والقوافل ... إنّها ستأتي من بعيد ... انها لن تاتي الا من قريب ... و من اين لي آن أعتق الكلام الأخير وقد نوى اللسان وفني الكلام وسارت الجحافل تحفر الرمس وترفل همسا ... من أين لي باسلام والغبار تزكم الأنوف وأبو الأسرد الذّلي يذ رو رماده ...< < إياك من العودة إلي الدور ... إيّاك من قول الزّور ... بانت القضية يا عبد اللّه الصّغير ... بعت الأندلس والقدس والقيروان ... » لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه ... إنّي أيّتها البدويّة لست عبد اللّه ... هل سمعت بآخر القصص ... أراك تحملين منها آلافا .. لن أعدّ فما عادت الأرقام تستهوي من صفّدته الأرقام ... سوف أقرأ لك البداية وأتلو عليه النّهاية : حدّثت الحصباء قالت : كان هنالك في غابر الأزمان بغلة تلد ألف بغلة في الثّانية ... وكان هنالك بغل يلد ألف بغل في الثّانية ... وكوّنوا حيًا اسمه حيّ البغال .... أصبح يعدّ في دقائق ملايين البغال ... ولتشابهها كان البغل يتزوّج البغل ... والبغلة كذلك تتزوّج من جنسها ... فأنْزِلت اللّعنة على البغال فكان أن فني معظمها ... وتاب أكثرها وتشرّد أغلبها ... ولم يبق إلاّ نفر قليل أقسم أن يكون وفيًا لدستور أوّل البغال : الصّك والقضم والهرس ... » إيّاك أيّتها البدويّة قد تسكنين من قصص البغال ولكنّها ستبقى أغلى القصص وأشهرها أما سمعت « بعرس بغـــل » و « خطوبـــة بغـل » و « ضحكة بغل » ... إنّها ما بقي من أريج البغال وستنافس أخبار الحمقى والمغفّلين ... أيّتها البدويّة حباك اللّه أنّك ما تعلّمت القراءة والكتابة وظللت على عهدك زجاجيّة الطّبع ... انْسِي كلّ ما سمعت فأنا من قبيلة بني بغل ... يصيبني الحمق ليلة الميلاد وأظلّ أهذي ... دعيني مع الهذيان

... لا تنسي أنّ القوافل ستأتي قريبا ... استعيذي من شرّ أبي الأسود وزمرته ... إنّ القوافل ستكون معبّأة هذه المرّة ... احذري الحمل الأوّل إنّه قبح ونجس وقطران ....

الباقة الثّانية : قمر على قرطاج :

إذا القمر سئل لماذا تجوس المدينة وقد ادّثر المزّمّلون ... ؟ .. في أيّ ركن كنت حبيبت ... ومن أيّ كوّة أطللت وفديت ... تساء ل المعربدون آنفا هل تستوي العصا والقلم ... وهل تجتمع النّواة والأمل .. ؟ وهل يطير البراق من جديد ؟ .. وكنت يا صاحبي ويا عزيز الحزن والرّحيل على طبعك هادئا تترشّف رحيق عصابك الباطنيّ تتعطّر بسلوى المجانين وأخبار من اكتووا بردهات العواصف البكر ... كانت نرجيلتك على حافة الصّخب وأنت تتلو لنا أضاحيك السّلاسل ، وأعراس الخالات ورقص المدجّنات يرعتن بلا أمل .... على عنف رياح تلّ الغزلان وبراء ة سكارى الحيّ العتيق عانقت فحيح الفجاج ... طرت مخلّفا براكين السّؤال : متى تخلع طيبة دنس الفجور ... ومتى يرغب نيرون عن قصّته ... حدّثني عنك الأعرج بن الأعرج وأصحاب ألسنة الثيران وأبناء الزّبعري ... قالوا ماذا عساه يفعل وليلة الميلاد على الأبواب ؟ ... لماذا يرحل وعصارة الأيّام ما زالت تستحمّ من الشّمس الذّاوية ؟ لم تأبه كعاداتك بالسّؤال وجواب السّؤال ولم السؤال لمن لا سؤال لهم ؟ لم يدر دناصير الخبر أنّ اليباب قد يلد الميلاد وأنّ القمر لا يجوس إلاّ إذا ادّثر المزمّلون ... هل نظروا يوما إلى الأصداء ؟ هل راقبوا عسس القمر ... هل قدّموا باقات لقرطاج ليلة الميلاد ... ؟ وحدك أيّها الرّاحل كسرت الفؤوس القديمة والمحاريب الصّدئة والأركان التّي ترجرجها الرّيح حيثما شاءت ... عندما ناولتني مولودك الجديد كنت كحاملة موسى تبحث عن أمّه ... وهل يعرف لغة القمر غير من عرف خضّة الميلاد وأحجيات زعانف العقارب ... ؟ ... لو كان ابن بطّوطة من « تلّ الغزلان » لشطب اسمه من دولوين الأسفار ... لو كان الحلاّج من « جامة » لأحرف أسطورته من القاع ... لو كانت زرقاء اليمامة من « مبزغ الشّمس » لسملت عينيها ... لا تكترث يا صاحب « نهر الحبّ ومواسم الذّهول » لن تعاد الصّخرة إلى القاع مرّة ثانية ... ولن يينع النّباح أريجا وكما قلت لي دوما : « من كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النّار ...

الباقة الثّالثة : الكتابة ... بالشّمس (محمد الجلواح)

أبا فارس
لا تفقد الذّاكرة
سجل ...
تفاصيل التّفاصيل الصّغيرة
واكتب لشعب
خارج القلب

حروف الابتلاء ..
إنّي أراك ...
تضحّ في الورق الصّقيل
علـــى السّـــلاسل ...
وتقـــود قافيـــة الهـــواء
إلى المحافـــل ..
* * *
أبا فـــارس
لا تفقـــد الذّاكـــرة
فالعمـــر
مـــن تاريخـــك المكتـــوب ..
في الزّمـــن الـــرّدئ :
عمر رباعـــي الحيـــاة
عمر .. لا يعـــدّ بالسّنـــوات
يعيشه هـــذا الورى
يحيطنـــا كالأســـورة
وثانيـــا .. حـــين كتبـــت
النّبض .. ثوبـــا أبيضا
وثالثا ..
حين أهـــانوا القبّـــرة ..
ورابعا ..
حين تعود حامـــلا
جرح القيود
فيرحل الدّيجور
وتعزف الأيام
ألحان الخلود ...

مسقط في 25 اكتوبر 1996
سلطنة عمان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الـــرّحـــيل

بقلم : زمردة دلهومي

الإهداء : إلى الأستاذة الرائعة « منية عدبي » مع كلّ مشاعر الود والتقدير !

المدينة مقفرة والأضواء خافتة والشارع باريسي ... ضيق و الأقدام مضرجة بالضياع ، الّليل ينزلق على جوانح السّماء الصّابرة والثّلج يكفن الجدران المتعبة غنى الريح لحن ثورة الجفاء فأجابته أسلاك الهاتف المحلّقة في رحم السماء بالخرس والإنحطام .

بكى ليلتها كثيرا عملاق هوى فتخلخلت أعمدته جبلا تكسرت دمعته على أرصفة الجفون فهلك وقد ضمخه الجوى . تسكع في شوارع المدينة المخضّبة بالمياه السّاخطة ، إنّك اليوم رجل الثلاثين المتمرّد ، دع عنك الشعر الأشيب الذي يقارع دنان العجز المذهلة ، ولا تهتم لبعض التجاعيد الوقحة ولا لسعال ينفض باطن جنبيك من الدخان الذي لثمته عشر سنوات خفية وثلاثين علنا .

إنّك اليوم غرانيق الثلاثين اكتمل فيك كلّ شيء لا تخفي زرقة تحت الجفون تجيرت ، لا زال نظرك ثاقبا ولا زلت مبتسما ضاحكا ! أو لست من علّم الدنيا الفرح ! ؟

طبيب الأسنان أكّد سلفا أن أسنانك جميلة جداً ومتماسكة ، لا تسعل بقوة ، تماسك لا تفصح سرك ، بأن العجز يقعدك ، اسرع الخطو قليلا والدتك تنتظر خلف الضباب هتافا ، قل لها إنّك بخير قل لها إنّك فرح وإنّ ابنتك تزوجت وأن حياتك رائعة احذر أن تذكر شيئا عن الشيب الذي غزا سواد شعرك ولا عن الألم الذي يصدّع رأسك احذر أن تقول لها ان زوجتك هجرتك لأنك لم تكن عاشقا في مستوى جنونها ولأنها لم تستطع أن تتصوّر حقل حضنك المكهرب وأن تفتح أبوابك الصدئة ! احذر أن تستشف من تلعثمك دقات قلب أحرجه الجوى فتكدر ستدرك أنّ الجرح لم يندمل وأن قوس قزح لا زال يسكنك ويعريك من زيف كبرك أتذكر قوس قزح وعباد الشمس وشقائق النعمان ، والأتان المجنونة يوم أسقطتك وكادت أن تقضي عليك ، ضربة الشمس التي أعجزتك عن الكلام أياما في موسم الحصاد ... قدح الطين الذي كسرته فكادت عضامك تدق من وقع عصاة جدك على كتفيك أتذكر وجه « غالية » وهي تزف غصبا وبين ضلوعها حبا إليك يتعتها ، اتذكر حين قبلتها تحت شجرة اللوز ووعدتها أن تكون لك عروسا وحبيبة وأشياء أخرى وصدقتك كم كنت كاذبا وجريئا لكنك بالمثل كنت ذكيا . أتذكر غالية كانت كل يوم تذبل كالشمع تنهار لتقضي ، السبيل إليك كالقلق ، كالبرق المنتشر تضي ، ولا تستضي ، كانت فاعلة وكنت ساكنا تراقبها من بعيد كانت تحبك وكنت صامتا متحفزا وشيطان السفر كان يلاحقك غالية كالقمح المذهب في سمرة خارقة شعرها فاحم ومثير قوامها فارع ومهوس نظرتها ثاقبة وجفونها ظالمة سمتها مجنونة كالأخطبوط يقرع أجراس مهجتك ويوحي إليك بالخوف المتوحش بالصراخ المفزع بالكؤوس المسكرة كانت غالية كالموت الذي ينبثق ألف يوم لتعيشه

ساعة واحدة كالنبض الذي يسكن الشرايين يرعبك وقع نشيجه ويفريك سحر عبيره لكنك تخاف التورط في أنهجه الممتدة وتهاب سواقيه المرتدة . ملأت قلبك عشقا وأحاطت بك آسا طفت عليه النوارس فحضنتها ظلت كالماء ترشف زلاله ليجيبك ويرحل بك في مسامات العريدة وامسميات الجنون الصاخب لكن الجسد البض النقي اشعاعا والشعر المذهب بخيوط الشمس الفاتنة لم يغب ساعة عن قلبك الطري ، سحر العيون الزرق والصاعقة الشقراء بددت فيك كل ذرة من ذرات ميلك لغالية إذن ما دامت غالية زهرة البادية لم يسكرك أريجها فلتسافر ولترحل وراء الشمس وخلف التلال المورقة لتجد وجه الأسطورة الساحر والخيال المقنع بخلّب الملائكة البيضاء ! !

ستترك غالية تتخبط في أشلاء هزيمتها تبكيك صيفا وشتاء وتلعنك فجرا ومساء غالية خطبت غصبا ! !

ستتزوّج غالية يوم السبت مساء استعدوا للخطب واعلميهم جميعا لا أريد حديثا ولا بكاء أو أتربدا ولاأريد نقاشا فقط أريد ضحكا وقبولا وأخرجي السّاعة من وجهي ! !

هكذا أعلن والدها عن زواجها فجأة . حقيقة مغلفة فتكت سمعها وافتضت قلبها االبكر ، جرت إليك مسرعة ، هرعت مرتعشة سيزوجوني أنقذني ، سيقتلوني ، سأنسف ، أحبك لا تتركني ، وكنت يومها باردا كثلج هذا المساء صامتا كهذا الليل ومقفرا من الكلام وداخل صدرك بركان يستعر مسكتك من كتفيك نفضتك تحسست وجهك وشعره ... كنت ساكتا دون حراك الدموع تتسابق على خديها وأنت ترمقها بعمق محرق ولا تأبى الخلاص منها .

سأتزوج ، لا أحبه ، لا أريده ، أنقذني ، دلني ، خذني إليك ، توسلتك يومها ونطتها الدموع من رأسها حتى القدمين كالحمامة المنحورة تقفز وتصرخ وتنخفض وتلعن وتثور ثم تعود لتتوسلك من جديد وكنت باردا كالصقيع غائبا عنها نظرت في وجهها جيدا . أشعلت سجارة دخنتها ذات يوم معك أخذت نفسا وثانيا وفي الثالث أشحت بوجهك صوب الطريق البعيد وقلت سأسافر غالية سأرحل عن هذه البلاد !!

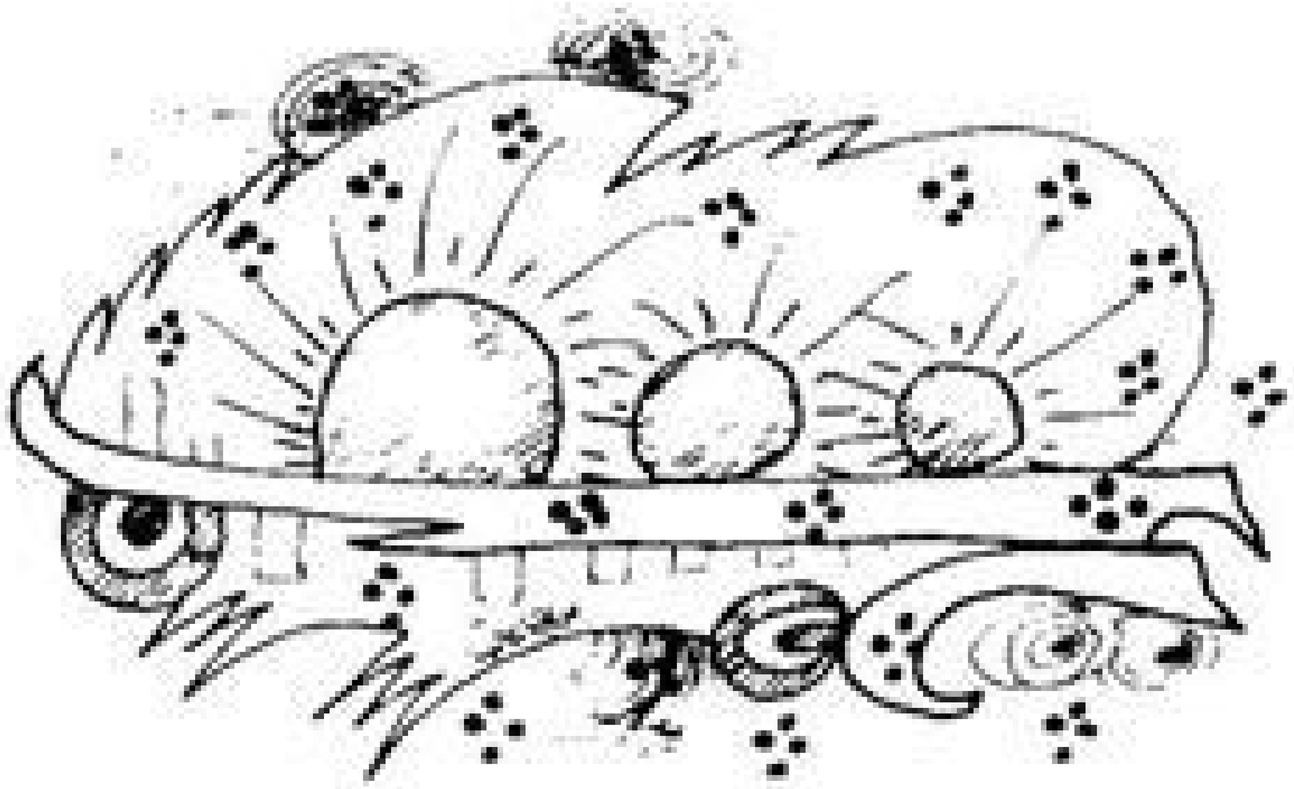
شهقت منزعجة ، تتركني ترميني بيدك للكلاب تمزق جسدي وتنهش صدري ووجهي تتخلى عني ، ويحي ماذا أفعل ، ويحي ماذا أسمع أي مصيبة وأي صاعقة تنسفني ، حسنا سافر لك المصير ولي الندم لك الأمل ولي الخواء لك الشمس والإرتواء ولي العطش والضياع !!

... ... صرخات رصاص تفتال الأفق الكئيب ، طلقة ، اثنتان ، ثلاث وسرب من الطلق يحلق ، تزوجت غالية ، زوجوها وقبلتْ يذبحونها وتظل أنت وحيدا بدنياها ونبضا في عروقها لبست خاتما شوكا أحاط بيدها وتغلغل بين العروق فأجتثها لبست خاتما وفقدت أصبعا عزيزا عليها حملت اسما جديدا ونذرت لتاريخها سوادا ولايقاع صمتها نشازا أطلقوا زغاريد نائحة وسمموا الجو بالأباخير الخانقة ذبحوا خرفانا سمينة وأعلنوا موكب تشييع جنازتها إلى زنزانة الإعدام الموحشة ألبسوها الحرير المشوك أطلقوا الجدائل السوداء علقوا على الصدر مرجانا خضبوا الكفوف بحناء فاقعة عطروا الجسد العسلي المتلالئ ضببوا الهواء بالند ودقوا الدفوف أدخلوها قفص الخراب المدنس وكنت ليلتها تستعدّ للرحيل يأتيك صدى العرس من بعيد متقطعا ولا تسمعه كأنك في قاع بئر قد سقطت ورواية السفر قد سدت أذنيك وداخل صدرك إحساسا موجعا لست تدري

إليه السبيل شيء فلامي الملامح زئبقي التكوين كلما توهمت بمسك خيط منه إلاّ وانزلق منك ثانية ، حملت أشواقك وأحلامك وحقيبة سفرك وعزمت على الرحيل ودعتك أمك باكية ووالدك حزين تحت عمامة قديمة ومعطف متهرم لم يشأ أن يسألك يوما عنك ولم يرفع وجهه وتلعثمت الدموع في مآقية وانخرط في بكاء مرّ !! رحلت يومها وأسكرك الحلم فذهلت .

خطوة ، اثنان ، مائة ، ثلاثون أميالا مشيت إلى اليمين والشمال وفي الحدائق الغنّاء ألما وكان الخريف يزحف تحت المآزيب المضمّخة بأخر لعنات المطر الغاضب ! ها تسقط في شرك نصبه دمع غالية وها الأفق من حولك ينطبق وينقبض وها تقطف ثمار تمردك ، ها غرقت في عباب اللون الأشقر ها تنكرت للقمح والبيادر والسواقي والتلال ونسيت شقائق النعمان وظفائر غالية التي خسرت فهل حققت التوازن داخلك هل شعرت بطعم الإستقرار والرضوخ لحقيقتك وأيقنت الهدوء ؟ ها تتسكع في الشوارع المقفرة وتختزل الخطو مترددا والمدينة حائرة ممزقة تخترقها أصوات منبعثة من العلب الكافرة والمقاهي المتعبة الغاصة . ها الليل يحتضنك أتطرقت إلى السبيل ووجدت نفسك وقلبك ، تدخل كل يوم المقهى تغرق في لج سحائب دكناء خانقة تتأمل الوجوه فيصدك جدار ضخم يصدمك فترتج داخلك ألف أمنية وينهار ألف صرح وتتوجع أنفاسك مرتعشة وتتسمم مآقيك بترياق الدّموع الجارحة تمارس حياة يائسة تتوج ضجرا يكفر بك الزمن فيوح بناء حصونك ويعلمك أن تثور على رجل التمر والخمائل المورقة عشقت تمثالا من الشمع الطري كان ينوب كلما اقتربت منه وتحترق المسافة بينكما لتتكشف لك السجون وتقتنع أن ورطتك اتسعت وأن سقوطك تأكد عشقت ألا واهيا فاشتعلت ، إلاها من السكر المحلي قطعت ثلاثين حولا تعبده وكنت كلما تجوع تأكل منه جزءا أكلت اليد والرأس والقلب وأنهيته وجلست تعبد وجهك الرديء .

قم أيها الرجل لقد استوى الخراب داخلك فاسأل عن والدتك ولا تنس إذا سألت عن مصيرك أن تقول لها غلطة حسبت بعد الزمن !! .



قصة قصيرة:

حـــي .. لا يـــرزق

«إذا ما أنت مت .. وقبل أن توارى الثرى،تأكد جيدا من أنك لســت حـــي»

بقلم : محمد رابحي
ـ الجزائر ـ

عندما ينثال دم جسد ما ـ جسدي مثلا ـ سيتحلق الناس جزعين من حولي ـ أهل عناية مثلا ـ سيرتبك جميعهم ويظلون في وجوم .. غير أن بعضهم سيتمالك إحساسه بالفجيعة ، فيذهب على عجل ليتصل بالإسعاف والشرطة ، وقبل أن يشرف هؤلاء هلاكنا بحضورهم على جناح الاهمال ، سأنزف كثيرا ، وسينزف الخلق أسئلة وأجوبة وتتناطح فيما بينها في محاولة إعتباطية لتقصي الحقيقة :

ـ ربما كانت قضية ثأر أو انتقام ؟! ـ ربما سوء تفاهم بين صديقين طائشين ! ؟

ـ أو كانت محاولة إغتيال قام بها أحدهم ؟!

لم يكن يبدو علي أني شخص ذا قيمة سياسية أو حتى إجتماعية .. لقد اطمأن الجميع حين صرخت بطاقة هويتي في وجوههم الممسوحة الملامح بأني موظف عاد ، لا يملك حسابا في البنك ، ولا يعمل له أدنى حساب .

وكنت في حسبان رجال الإسعاف مجرد خرقة يسارعون بها لتلقى في ركن دفين من المستشفى في انتظار اسعافي كحالة مستعجلة .. بيد أن الموت لم يسعفنا بالوقت اللازم لإسعافي ووضعي تحت العناية المركزة التي كانت منصرفة إلى شؤون أخرى . أظنها هامة ، وأولى بالإهتمام إذ هي من إهتماماتي اليومية أنا أيضا ، لذلك سأتقبل موتي هذا برضى بالغ .

وعندما بلغت ذروة موتي ، تولت الشرطة التحقيق في سبب الوفاة ...

ـ هذا كيس تسوق في جيب سترته .

ـ لابد أنه كان ذاهبا للتسوق

غير أن الضابط المتيقظ لاحظ أن النقود التي بحوزة محفظتي المهترئة ، لك تكن كافية لشراء علبة سجائر .

ـ ربما الذي قتله يكون قد سرقه .

غير أنهم وبعد خطوة أخرى في التحقيق تبين أني صرت مطرودا منذ مدة غير قصيرة من المؤسسة التي كنت أعمل بها .. فاحتاروا ؟!؟

واحتار الناس وهم يتابعون مجرى القضية عبر الجرائد والصحف ، خلل جميع أبوابها وأركانها في الصفحة السياسية كانوا يقولون أني كنت أستأهل حياة أطول ملؤها الحب والإستقرار .. بينما في الصفحات الإجتماعية أكدوا بأسف أن كان عليه أن يجتنب مخالطة جلساء السوء فيما اتفق محرروا الصفحات الثقافية على أني من هواة قراءة القصص التاريخية وروايات الخيال وقال معدوا الصفحات الرياضية معلقين على صوري المنشورة : لم يكن رحب الصدر واسعه وفي أعمدة الوفيات وفي ركن التعازي حذروا القراء من مغبة ذكرى أو الترحم علي سرا أو علنا .

وعندما ذهب الضابط المحنك للتحقيق مع زوجتي قالت له بتوكيد : إن زوجها بخير وسيعود إلى البيت ليلا ... فانتظروا آخذين بعض الحرية من البيت .. حتى دخل الزوج خائراً في شبه إغماء ة ..

كنت أشبهه وكان يشبهني ، وكنت أراه ، وكان يرى الشرطة من حوله انقضت عليه تصفده .. وقبل أن أقتيد ، أقبل إبني الأصغر يتواثب ، والتف بساقي يسألني في لهفة إن كنت قد أحضرت له الحلوى ..

وعلى بعد مسافة بسعة إغماء ة ما ، صحوت وكأني واقف ، وكأني مسجى .. وبحفاوة مباغتة سألني الضابط إن كنت أعرف هذا الميت فقلت : حق المعرفة ، فهذا أنا بشحمه ولحمه وحينما سأل المجني عليه إن كان قد تعرف علي أجاب : هذا أنا بعظمه وجلده .

وبعينين غائرتين في الذهول تحول الضابط عن جسدي المنتصب والمسجى ، وعن وجهي المدهوشين المرعوبين ، وراح يتجول بهما في صمت زملائه ، ثم إنتقل بهما إلى السقف يستمطره راحة البال .

وبعد أيام سمعت أن التحقيق لم يعد يبحث في سبب مقتلي ، والمطلوب قاتلي وإنما اتخذت علامات اِستفهامه مجرى سؤال فظيع : هل أنا حي ، أم ميت ؟!

هكذا تساءلت الصحف

وانتشر السؤال لهيبا في هشيم الناس ... فبدا السؤال على ألسنتهم ذرات حمراء يطوقها بعض الرماد الذي راح يلتهم بياض السيجارة حتى لسع أصبعيه .. فانتفض وزير الداخلية مغتاظا آمرا : يجب أن تنهي مثالب هذه المهزلة ، ونكفّ ألسنة الناس .

ثم أردف : يجب أن نغلق التحقيق في القضية .

كنت أنتظر الحكم في القضية حينما بادرت زوجتي بزياراتي في السجن ، ورأت ما رأت من شجوني .. ثم لم تر في ذلك مانعا من أن تقول أن الناس زعموا أنها توفيت حزنا على بعلها .. ماتت تضامنا معي ! ثم نظرت إلي كأنما تستفسر شحمي ولحمي اللذين سرت فيهما قشعريرة .. وأردفت : وأنا أموت وضعت طفلا « ما شاء اللهُ » سوف يحمل اِسمك .

وبعد برهة ، ومن تحت صمت ثقيل رفعت صوتا كأنيا : غير أنه الصغير المسكين سيحيا داخل زجاجة ، طوال عمره .. الذي قد يكون ـ حسب الطبيب ـ قصيرا ونحن على هذه الحال نغوص بأعماقنا .

ونحن على هذه الحال نغوص بأعماقنا ، صادفتنا ضحكة ، أطلقانها سويا ، وجعلنا نتضاحك من صلب هذه الأعماق .. نضحك ونضحك .

وحمدنا الله على أن تأنيث الغرفة الزجاجية لن يحتاج إلى كثير من المال .. وإن هذا الأمر لن يتيح له فرصة ليفكر بالهرب مثلما أخيه الذي لجأ إلى « أثيوبيا » برغم الأمر الوزاري .

وبعد أيام .. من مداولة شاهقة السرية ، وقع علي الحكم صاعقة .. وإني صعقت إذ قيدت القضية ضد .. دي ؟! ..

وعلى حين غفلة تم إعدامي مع وقف التنفيذ .

عنابة / الجزائر

" أمّـــك تـــوزر "

« أيـــا أمّ هـــــل ..... ؟ » الشّابـــــي

بقلم : حبيب الكسراوي

كانت تذهب وتجيء وتغدو وتروح ، لا تكاد تراها إلاّ على قدم وساق ، تصرخ أحيانا وتضحك أحيانا أخرى ، وفي ذلك لا تخلو ملامحها من مسحة حزن تغشّي وجهها النّحيل وجسمها النّحيف الذي يبدو أنّ سياط الزّمان قد ختمته بخواتمها التي لا تُمّحي . تلك هي « أمّك توزر » أو « سوسن » كما عنّ للبعض أن يسمّيها .

كان لقائي بها في مركز إصلاح الباكالوريا بمعهد الشّابي بالقصرين .. جلبت إنتباهي ذلك أن علامات الشّيخوخة تكاد تختفي من مخيّلتك وأنت تراها في حركتها الدّائبة رغم كونها طاعنة في السّن ... إنّها صورة من ذلك العود الذي يلين ويرتخي لكنّه لا ينكسّر . هكذا كانت أمّك توزر تقاوم ريح الزّمن الذي تعيشه ولا تحياه .

كانت أمّك توزر تعمل في معهد الشّابي تعتني بشؤون النّظافة فيه وكانت أو هكذا خيّل لي خلال السّنة الدراسية تحرص على بيع قليل من المرطّبات للأساتذة في فترة استراحتهم مع قليل من المشروبات وكانت تلبّي حاجيات التّلاميذ أيضا . كانت مقاولة في مجالها ترعى رزقها وتحرص على بناء ثروة وإن كانت متواضعة .. وكان الزّمن أحيانا يجرّها وخزا ليذكّرها بقانونه الأبدي الإنتصار على هذا الكائن الذي لا يفتأ يتجاهل فعل الزّمن فيه ، فتجلس تلتقط بعض أنفاسها ويظلّ لسانها يأمر وينهى بعض المراهقات اللاّتي تشرف عليهنّ في العمل ، وكأنّها وهي تجلس على صخرة تأمر وتنهى أو على مدرج مؤتمر إلى المراحيض تحاكي « السّيد » يأمر وينهى فتنفذ أوامره ونواهيه .

كانت متعبة ذات يوم ، فجلست على صخرة وسط حجرة صغيرة خصّصت لإعداد الشّاي وتبريد المشروبات الغازيّة ، فسألتها « لا بأس ؟ كيف أحوالك ؟ »

نظرت إليّ وقد علت محيّاها ابتسامة لا تكاد تبدو من شدّة ما أضنتها بعض التّجاعيد التي كانت مخطوطة على وجهها . وقالت « لا بأس !

ـ يبدو أنّك متعبة هذا اليوم !

ـ قليلا .. أصبح الإغماء ينال منّي بسرعة . لم آكل أمس سوى قطعة من

خبز ... ليس لي رغبة في الأكل ..

ـ لماذا لم تذهبي إلى الطّبيب .. السّبب فيما أظنّ متعلّق بفقر الدّم ؟!

ـ متى سـأذهب .... أتي في الصّباح باكرا .. وأظلّ أعمل طيلة النّهار .. وأعود في المساء لأنام ..

ـ هل أنت مرسّمة ؟

ـ منذ زمن طويل ..

ـ من حقّك أن تطلبي رخصة مرضيّة .

سكتت ... ولا أدري لماذا ... أليس من حقّ العامل أن يستريح إذا أجهده العمل وأضناه المرض ؟ ذلك من حقّ العامل منذ وجدت بعض التّعاليم أو بعض المنظّمات التي تنكر أن يكون العامل آلة تشتغل حتّى الثّمالة ثم يلقى به في مزبلة الأسماء التي صدئت .

غرقت في أفكاري وتعالت الأصوات داخلي صارخة فخشيت أن يسمع لها صدى خارج أغوار أعماقي .

ـ كلي العسل والحليب والكبد و ...

وسخرت من نفسي بعد ذلك ، ألست أستعرض بعض معارفي أمام أمّك توزر أستاذة في هذا المجال كجلّ أبناء جيلها وبناته .

وكثيرا ما كانت أمّك توزر تصرخ تعابث توفيق :

ـ « واهاي ... واه ..... واه ... »

فيجيبها بلهجتها ذاتها :

ـ واهاي ... واه .. واه ... واشبيكي تعيطي آ توزر »

فتحتجّ .

ـ « نا سوسن »

ـ أنت سوسن ؟

ـ نا سوسم

ونظلّ نضحك ، وضحكنا كأنّه لا يكون ضحكا قطّ ، كذا تغدو الضحكة حشرجة في الحلق أو غصّة في القلب أو ضيقا في الدّماغ ... لا أدري لماذا ولكنّ الأمر كذلك .

توفيق هذا الأستاذ أيضا كان كثير الضّحك ولكنّك حينما تتأمّل أحيانا بعض ملامح وجهه أو صوته فإنّك لا تشكّ لحظة أنّه يحمل جزءا كبيرا من جبال الشّعانبي على كاهله ..

ويظلّ ذلك الصّراخ قائما بين توفيق وسوسن حتّى يخبرها بأن فلانا يكره الصّدام ويحبّ بوش ، وإذا بملامح المرأة تتغيّر ويكفهرّ وجهها دون أن تغادره تلك البسمة التي كانت ترتسم على وجه أمّك توزر باستمرار ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتزمجر ... لكن دون قسوة ، « من يحبّ بوش كافر .. صهيوني .. فليذهب .. فليعش في إسرائيل .. وليدخل جهنّم معهم .. فهو ليس مسلما ... ولا تسفر شفتاها عن بسمة عريضة حتّى ترى الوجوه من حولها وقد علتها ابتسامات أو قهقهات متعالية فتهدأ وتقول بكلّ لطف وبساطة من يطمع في أمر عزيز .

ـ لا ... هو لا يحبّ بوش .. أنت تكذب ..

وغادرت المركز وأنا أتساءل ، من هي أمّك توزر ؟ .. من نحن ؟ ما علاقتنا بأمّك توزر ؟ .. ما علاقة أمّك توزر بسوسن ؟ ...

وعدت إلى مركز سكناي بالعاصمة وهذه الأسئلة لا تكاد تخبو حتّى طرق الباب بشدّة .

ـ من الطّارق ؟

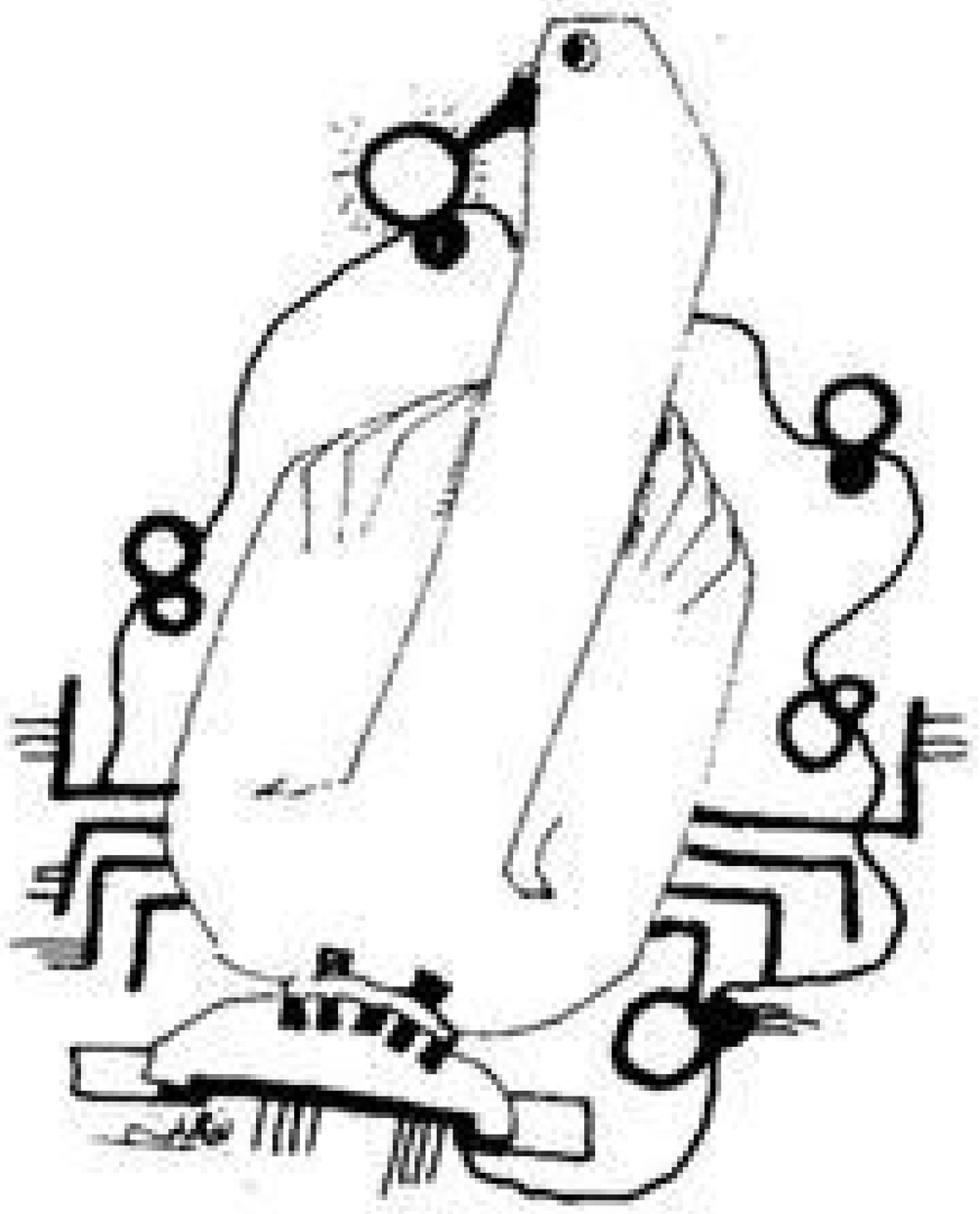
لا صوت يردّ .. والطّرق يزداد شدّة ..

فتحت الباب ... وكم كانت دهشتي عظيمة حينما تأمّلت الطّارق فإذا هو أمّك توزر ، تلهث مزمجرة .

ـ تكاد تخنقني رائحة الحلفاء كما قتلتني مهنتي ... هل كتب عليّ أن أموت في كلّ يوم مرّات ... هل كتب عليّ أن أموت في حياتي الأولى وحياتي الثّانية ... ؟ ونظرت فلم أجد أحدا أمامي .. أغمضت عينيّ وفتّحتهما العديد من المرّات وأنا لا أدري ما الذي حصل .

.. سقط القلم على الورق وعجزت أصابعي عن التقاطه من جديد ... وأنا لا أدري لماذا

وعدت أقرأ ما خطّ القلم على الورق فإذا هو « أمّك توزر »



الأقـــلام الواعـــــدة

إشراف الأستاذ : عبد المجيد زين العابدين

يستهل ركن الأقلام الواعدة بداية سنة جديدة من النّضال بالقلم بعد الإجازة السنوية لمجلة الإتحاف التي من شأنها أن تتيح لهؤلاء المناضلين اليافعين فرص المطالعة المكثفة والمراجعة لطرقهم وأساليبهم في الكتابة وتحسّس نقاط ضعفهم وتعثرهم والعمل مستقبلا على تلافيها والسّمو بأعمالهم قدما إلى المنازل الرفيعة .

فما من عمل سما إلى سماء الأعمال المعروفة على الساحة الأدبية والفكرية إلاّوكان من ورائه صاحبه دؤوبا لا يملّ من المراجعة والقراءة والنّقد الذاتي ومحاولة الوقوف على الأخطاء مهما كانت لغوية أو تعبيرية أو مضمونية وهو في جميع الصور والحالات متواضع يقبل النصيحة ويحاول العمل بها . فمرحبا بهؤلاء المناضلين الناشئين مجدّدا وسنة أدبيّة مثمرة وموفقة لهم .

*** إلى الأنسة إيناس الحمادي :**

قصيدك " روايات الدّموع : يدلّ دلالة واضحة على تمكنك من قول الشّعر الجيّد وتوفّر الأذن الموسيقية لديك ، فالبحر فيه هو المجتث وله تفعيلتان وهما " مُسْتَفْعِلُنْ ـ فاعلاتن " في الصدر ومثلهما في العجز .

الوزن يستقيم في كامل القصيد إلا في البيت : « وأبحثُ دون جدوى » **فلو قلت : « أبْحَثُ مِنْ دُون جدْوى »** لصحّ الوزن فتصبح تفعيلتا البيت متفعلُن فاعلاتن عوضا عن **متفعل فاعلاتُنْ** كذلك في " **فقلت** " في البيت الثالث فقد كان يجب أن تكون الكلمة على وزن **فعلاتُن** .إذا كان عملك هذا من محض اجتهادك فأنا أبشرك بأنك تقدرين على أحسن ممّا **قلته وخاصةً إذا نزعت** إلى اختيار مواضيع تكون لصيقة بعصرنا .

أيّتها الأنسة إيناس أرسلي إلينا بما يفيدنا بمستواك الدّراسي والثقافي واذكري لنا ولايتك ومسقط رأسك .

مرحبا بك صديقة جديدة في ركن الأقلام الواعدة وإنّي أنشر لك هذا القصيد بعد إصلاح البيت المشار إليه سابقا :

روايات الدّموع

كـــمْ هدّدوني بقتْلـــي
والقـــوْل ليْسَ مُريبـــي
قالُـــــوا دَعِيــهِ فقلتُ
ينأى ويبْقَـــى حبيبـــي

لا تَقْرَبُــوا النَّــار إنَّي
من لفحِ ذاك اللهيــبِ
* * *

هلاَّ رفَقْــت بِحَالِــي
هَانَتْ عليْك دُمُوعِــي ؟
لكم روت مــنْ حَكَــايَا
وحَدَّثْتْ في خُشُــوعٍ
في لُجَّة اللَّيْل تــذْوي
وفِي أمَاسِــي الرَّبيع
تَرَاهُ طَيْفًــا خَيَــالاً
فِي ذَائِبَات الشُّمُوعِ
* * *

ألوذ بالحبــر حينــا
فــلا أجيد البدايــة
أبْحَثُ منْ نُونِ جَدْوَى
عن مفرداتَ الحكايهْ
فلا تراني ابتدأت
ولا أصبت الكفايــة
هل اختصرت الزمان
أم خادعتني المرايا ؟
* * *

ثق ياحبيبي بوعــدي
ما زلت طوع العهود

فلا تمل إنتظـــاري
ولا ارتقابَ جديـدي
إن كان طال غيـابي
فلن يغيب قصيـــدي

*** إلى الطالبة سميحة التمري أصيلة صفاقس :**

أهلا بك صديقة جديدة يا آنسة سميحة . إنّ أعمالك التي أرسلت بها إلينا ومنها : « بعدُ الترحال ... لمسافات بعيدة » و « لون الحلم ... لغة » تدل على أهميتها نظرا لاستقامة لغتها وجزالة تعابيرها وشعرية ألفاظها والأسجاع التي تنزعين إلى استعمالها في أكثر من بيت في آخره . فإذا أنت واظبت على قول الشعر وقراءة الجيّد منه تختارينه من ينابيعه الثرة خاصّة مازلت تواصلين دراستك العليا ، فلا شك أنّك ستصبحين من كبيرات الشاعرات العربيات أنشر لك في هذه الحلقة قصيدك : « لون الحلم .. لغة »

لون الحلم ... لغة

هل نعيد الكرّة الحمقاء دوما
يا صديقي
هل نبيت الليل نعدو
داخل الحلم سنينا
لغة الحمقى تجيزُ البوح بالرقص
على الحزن طويلا
لغة الحمقى تجيد اللهو
بالشعر ، بهمّ الشعراء
* * *
وطريق الشعراء الآن ملتفٌ تماما
حول أعناق الحروف
يبتغي أسرارها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما الذي أخجل صوت اللغة الآن
غير خوف العري والموت ؟
ما الذي أخجل صوت اللغة الآن
غير الحبّ ؟

* * *

سنعيد الكرّة الحمقاء حتما
يا صديقي
وسنبدو من جديد
وردة للعاشقين
سيخيط الدرب فستان اللغة
وسنبقى موجة للحرف
يطفو فوق أسوار الوعود
سنعود
سوف نمحو دمعنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد ما كانت ستارا
ربّما قالت لنا الأيّام
ما يتعب
ربّما كانت بنا الأيّام
تلعب
غير أنّا
سوف نختَارُ
غداً
حلُمًا جديدْ

* **إلى الآنسة وحيدة الرّواني القاطنة بالسرس :**

مرحبا بك أيّتها الآنسة وحيدة الرواني ولئن بدت واضحة ثقتك في قدراتك القلمية ، فإنك في حاجة إلى مطالعة الكتب الجيّدة لصقل لغتك والاستقلال بأسلوب خاص بك في هذا المضمار .

أشكرك على تلقائيتك الواضحة وأرجو منك مراسلتنا .أنشر لك في هذا المجال : « نشيد البحـــر »

نشيـــد البحـــر

تسلّلت مـــن خلف المسافـــــات

ومن خلف القدر

تعمّدت الغوص بأعماقك

أيّها البحر

أنائم أنت ؟ أحالم أم ثائر ؟

لماذا إذ كنت تَبْحَثُ عنّي

لماذا راودت قلبي ، وعلمتني السّفر ؟

أنا أهواك أيّها البحر

غاضبا كنت أم ساكنا

قريبا كنت أو نائيا

فلا تبتعد

ودع موجك الحالم هادئا

إنّي أرى ضلاله عمرا

أرى طفْلاً جميلاً ومَهْدًا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلـــى أمل اللقاء بكم أيها المناضلون بالقـــلم في عـــدد قادم أرجو لكم التوفيق والسّـــداد .